



لاعب الشطرنج

تأليف

سستيفان زوتسايج

و قصة

طونيوكروجر

تأليف

توماس مان

ترجمة يحيى حقي



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسوي

الإسكندرية

قصتان من الادب الالماني

اللعبة الشطرنج

تأليف : ستيفان زفايج

طونيوكروجر

تأليف : توماس مان

ترجمة : يحيى حقي

اهداء الكتاب

الى صديقى واخوى

الدكتور نعيم عطية

والاستاذ سمير وهبى

لما أسعدانى به من محبة ووداد ..

يحيى حق

مقدمة

عما قليل ستتهادى اليك من قصص الغرب العريقة اثنتان لا واحدة فحسب يا عم ، كنت قد ترجمتهما منفصلتين ، الاولى قديما والثانية حديثا ، فكان عطاء كل منهما قاصرا على قيمتها الذاتية غير متجاوز لاطارها ، فلما أريد لهما أن يجتمعا بين جلدتين اذا بهذا العطاء يفيض ويتضاعف ، فقد أصبح هذا الكتاب بفضلهما — وان بغير سعى منهما — صالحا للتعريف ببعض ملامح الانب الالمانى المعاصر ، متمثلا فى اثنين من اكبر ائمه وأوسعهم شهرة عالمية هما استيفان زفايج ونوماس مان ، صالحا أيضا للتعريف ببعض خصائص شكل فريد من اشكال الفن القصصى هو أطول من القصة القصيرة وأقصر من الرواية الطويلة ، نسميه أحيانا قصصا وبعض الناس يحبون هذا الشكل لأن الحكاية فيه تكون محبوبكة ، ملمومة ، مثذبة ، لا يبقى منها الا الجوهر فيتلاها اشعاعه ، ومن عجب أنه غير شائع عندنا ، ولست احب أن يقاس الفن بمقياس مادي ، كالحجم مثلا ، فى القصة واللوحة والقصيدة ، انه مقياس خاطيء ومضال ، العبرة هى فى التماسق والالتحام بين الشكل والمضمون ، ينشأ منهما نبض خاص بكل شكل ، حينئذ تدب الحياة فى العمل الفنى ويتسم بالصدق والقدرة على الاتقان . وينشأ نبض الامتصاصة من توفيقها فى الجمع بين الاستيعاب بلا ففضضة والجمال بدون تضحية بعناصر جوهرية لا حبا فى هذا التوفيق

لاعب الشطرنج ٨

فحسب ، بل لأن الموضوع يستلزمه اذا كان المطلب هو ارضاء الفن والتزول على حكمه ، ولماذا أقحم رأيا لى عليك ، سأخلى بينك وبين هذا الكتاب لترى بنفسك نبض الاقصوصة وخاصة في « لاعب الشطرنج » من تأليف استيفان زفايج . أما الآن فدعنى أحدثك عنه قليلا .

لا أحسب ان ناشئا في الادب يصادق استيفان زفايج الا أحس لتوه انه وقع أسيرا في قبضته ، لا مفر له من أن يتأثر به ، سعيه بعد ذلك أن ينحدر منه ليهتدى الى سليقته ، لابد له أن يقرأ كل حرف كبه ثم يقول هل من مزيد ، اننى انكلم عن تجربة ، هكذا كان حالى ، لا أخجل من الاعتراف بأننى كتبت قصة (اليوسطجى) في شبابى وقت أن وقعت أسيرا في قبضة زفايج حين صادفته في طريقى ، أسرني كما يأسر كل قارئ ولا ريب بصفة غالبة على جميع مؤلفاته . سواء في القصة أو السيرة أو التاريخ أو الرحلات ، هي الانتقاد والجيشان ، انتقاد يحيل الحديد الغليظ الى كتلة شفاقة من لهب ، وجيشان كالنافورة المتوثبة التي لا ينضب فيضها ولا يضعف اندفاعها ، متلاحقة ، بعضها آخذ من بعض ، وهي في كل الأوقات من قوام واحد ، مذهلة قدرته على الجمع بين الاستمرار والتجدد ، بأى خطو سار ستشعر أنك تلهث جريا في تتبعه ، تتمنى أن ينتهى مشوار تتمنى الا ينتهى ، فاذا فرغت منه أحسست بشعب تحسب أنك لن تعاني بعده من جوع مهها صمت ، أحسست أيضا — صدقتى — بشيء من التتميل يمس أعصابك بآلم لذيق ، ألم تكن تجرى طول المشوار ؟ تحس بشيء من الخجل والغيط لأنك تعريت ، كأن يدا قد نفضت عنك

لاعب النطرنج ١

ثيابك واندس منها ألف اصبع الى خيلك تفتش عن أسرارها وتكشفها ، بل تعرفك بها ، فقد كنت تجهلها لأنها مطوية في ظلام جوفك ، ولكن التفتيش تم على وهج كتلة اللهب الشفافة ، أصبحت العواطف في قلبك قادرة على بلوغ نهايتها القصوى ، الحب الى ذروة الوله والهيام ، والنفور الى غاية من الكراهية والبغضاء ، تنفجر هذه العواطف لأن مشرط زمايج قد مزق ركودها في قلبك ، يمنحك متعة السبع عند النهاية ، ولكنه يحرمك ايضا من متعة تأمل كل فقرة على حدثها لأنك تجرى وتلهث ، كأن كل فقرة نفخة متجددة في الآتون لكى يزداد التهابا ، وهذه هى اهم سمات العمل الفنى ، الفقرات لابد أن يكون لها نبوغها وعقربيتها استقلالا ، ولكنها نذوب في الكل حتى نكاد لا ننتبه لها، ومع ذلك اذا حذفت واحدة منها انهار البناء أجمعه .

وسط هذا الانتقاد تنصهر الالفاظ وتحول اللغة من العموم الى الخصوص ، وتخاطبك بلسانين : الافصاح والايحاء ، المباشرة والكنائية ، ، الحق والاسنعاره ، بل يتحقق لها المسنحيل ، الجمع بين النقيضين ، طابع الالف والحرية ، كأن كل الناس هكذا يتكلمون ، وطابع الرق والاستعباد لأنك تعدلها او قل نشوهها لكى تقى بغرض نفعى مستبد في سباق لا يطابق الواقع ويؤزم أنه الواقع ، حوار أبطال القصة صادق ولكن لا أحد في الدنيا يتكلم مثلهم في حال كمالهم، لابد من الاختزال الجبرى والبتربلا حصرة للء قوالب محددة يستقل بها العمل الفنى ، وشرط الايبين طابع من طابع ، الفن لغة تنسيك صراحتها إنها شفرة سحرية ترمز — كما في الاسطورة — الى سر الباطن

لاعب الشطرنج ١٠

من تحت الظاهر وتوحد الكائنات تحت ستار من الشتمات
هكذا لغة الفن ، لغة زفايج ، لا يسمح انتقادها لبصمات
البلاغة وقواعد النحو أن تجلجل فتصم الأذن ، أو أن
ترشق العين فسقوؤها ، الانحام يحقق من وراء ظهر
أدوات الوصل والعطف كأنها بالرغم منها لا يفضلها ،
والسلام متبادل بين الأسماء والأفعال والحروف .

وليس هذا محسب ، أن أسر اسنيفان زفايج^٥
لقارئه راجع أيضا الى نزعه الإنسانية الجارفة ،
لا ينقص من قدر الإنسان عنده أنه ضعيف ، هو يعيره
ولكن لا يسخر منه ، لا أعرف مثله كاتباً عظيماً خبيراً
بأسرار النفوس وأقنعة الخداع ، براً قلته تمام البرء
من السخرية ، ما أقوى اغراء السخرية لكاتب يتأمل
البشر من عل لا للترفع عنهم بل لاستيعابهم ، ومن
عجب أن السخرية رغم زعمها أنها وليدة حس مرهف
غض الذكاء تتم بالعكس عن الجفاف أو تهدد به ،
سلم منها زفايج حتى في خريف عمره ، مطلبه هو فهم
الإنسان لا الحكم عليه ، انه يتركه كما تناوله ، كما
التقى به ويودعه ! ريشة في مهب الريح نصارع وحدها
مصريها ، هذا الكاتب في حديقة الأدب الألماني شجرة
حور متوتبة ، نافورة من خشب ، سامقة ، جذع
رشيق يديق كلما علت ، فلا ننبت الأغصان الا قرب
تاجها الشامخ وهي قليلة ، كأنها جعلت ليفرد عليها
شراع مشنق الى بحار مجهولة ، هيهات للآثم الضال
أن يجد تحتها ظلاً أو نفحة من أمل ، انها ترمقه بعين
فاحصة ثم تتركه في الهجير لقدره ، هيا به الى النخل
الوارف تحت شجرة سنديان ، غليظة الجذع ،
حدادحة ، رحابة الصدر عندها أحب من ارتفاع الهامة ،
فاحشة التراء بأغصان ملتقة ، ذائبة ، دائرة ، كأنها

لأب الشطرنج ١١

قبة محراب ، توحى بالسكينة والحكمة ، هي شجرة جوته ، التقى بفاوست وهو هاو الى الجحيم ولكنه لم يتركه الا بعد أن فتح له باب الأمل في رحمة الله وغفرانه اذا صدق ندمه وصحت توبته ، في رسالتها وهي برد وسلام ونفج للروح .. بعد سنين عديدة سيقى جوته فذا كما كان ، على حين قد يظهر لزفايج أعداد كثيرون .

١ هرب استيفان زفايج في قصصه من رافعى لواء الطقوس والفلسفة والحكمة والتاريخ ليلوذ بحضن الفن وحده ، هو خلاصة الجميع ولكن لا يستبعده أحد ، هو الكلمة الأخيرة التي كانت على السنتهم كلهم ولامر ما لم ينطقوا بها ، لا عجب حين نطق بها الفن ان كان لها جرس الرقى والتعاويد ، قابلة لأكثر من تفسير ، متار حيرة وخلاف ، غير مقنعة هي أيضا ، أعرفت الآن لن الكلمة الأخيرة ؟ لن كانت له الكلمة الأولى ..



الآن يؤنبني ضميرى ، لأننى تحدثت عن الشبع الذى يحس به قارئ ستيفان زفايج وأنا أكتف شكاً فى صدرى لأبد لى من أن صارحك به . يثير هذا الشك سؤالى : هل فى الشبع كما فى الجوع ما هو جاذب ؟ والا فلماذا يعاودنى الآن هذا الشعور الذى يتخلف عندى كلما فرغت من قراءة كتاب لهذا الساحر الأسر ؟ أتعرف الشهاب الذى يلعب فجأة بالليل ، لا ترى حياته الا لحظة يهوى مقفزا كالأشئوق الى حتفه متقدما متوهجا كأنه شمس تجمعت فى شرارة واحدة فاجرة ، تحسب أن أدنك تسمع أزيزها ، جميع النجوم البراقة بدت بغتة معتمة ، نخطف أنفاسك فتكاد تشهق من فرط انبهارك

لاعب الشطرنج ١٢

به ولكن كل عمره لا يزيد عن طرفة جفن ، فاذا اريد البصر وجدت هذا الطارئ المقنحم قد انكشط عن صفحة السماء . لأثر له ولو شبهة من دخان شاحب ، عادت النجوم العتيقة الى بريقها الثابت المنصل كأنها ليس الأهم عنده هو طول العمر والأثر بل البرهنة يخيل على براعته الخارقة في جذب الأنظار والادهاش ولو للحظة عابرة يدفع عمره كله ثمنا لها ، والغلو في استعراض البراعة افتتانا بالنفس يلقي جزاء لا مفر منه : أن يكون الأثر كالشبح الكاذب ، أخشى أن يكون هذا هو حال الساحر الأسر استنفا زفايج . ما أسرع استيلاءه عليك واستبداده بك ، ما أسرع انعتاقك منه لحظة أن يتوارى عنك ، لا أنكر أن نفسى همت بى أن أعيد قراءة كتاب له كنت انبهرت له أشد الانهار ابان خضوعى له ، انها تعاد قراءة كاتب يكون كالنجوم المتأنية الخاشع همسها اليك بمعنى الجمال والانسلاك فى الملكوت ، كان مددها من ندى أم ترضع طفلها ، لا تقصد اشباع جوعه ، بل تمنحه غذاء يسرى فى كيانه ويبينيه صحيحا على مهل .

أكون خلة اليهود ابان الشنات هذه الشهوة العارمة لاسعراض براعة على الادهاش نبز طاقة بقية الناس، نلمسا لكبرياء يدحضون بها اذلالهم الذى جروه هم على انفسهم . شطحات كتيرة فى الفنون التشكيلية والادب المسرحى مرجعها اليهم بدافع من هذه الشهوة التى انقلبت بعد الصهيونية الى داء يشبه جنون العظمة ، بل تجد هذه الشهوة على تعليقات فرويد ، وقد يفسر بها كثرتهم بين العازفين والفريوز وقتلهم بين الملحنين المبدعين العظام ، فالفريوز ابداع تمثال بجسد اعلان البراعة الفذة التى تتعبد جفب انبهارك . فاذا كان

لاعب الشطرنج ١٣

استيفان زفايج بين العازفين هو الفيرتيوز فهل لأنه بين مصاصيح السماء هو الشهاب .

يضاف الى رصيد زفايج قدرته الواضحة على المناورة والتنبع ، انها مظهر هيامه بالكشف وظمئه للمعرفة ، ما أن يبدو له طرف خيط حتى يطبق عليه بيد صائد فانك وحنون معا على الفريسة المسكينة ، ويظل يجذبه باصرار ورفق ، محاذرا أن ينفلت أو ينقطع أو يلتوى ، الى أن يصل مهما طال المدى الى خبيثة البكرة التي اطلقتها ، تراه في أوج قدرته لا عند العقد التي نصادفه وتوهم ضخامتها أنها عسيرة مع انها سهلة ، منتقشة لأنها هائفة ، بل عند العقد الصغيرة كراس الديوس ، لا يبين منها ظهر من بطن ، مبتور منها اللسان والأذرع والسيقان ان لم تسعفه أنامله في فكها لم يتركها بل استعان عليها بأظافره ، بأسنانه ، ومن هنا نحس أن أسلوبه لا يلتهم السرد فحسب بل ينهشه نهش الغول ، هكذا يصل الى قرار النفوس فيكتشف سرائرها ، وكشف سرائر النفوس هو أول شيء بشوقه ، لا هم له غيره ، انه لا يعيش الا له ، ان انقطع عنه باخ ورذل ، بهذه المتابعة الظمأى للمعرفة قام استيفان زفايج في « لاعب الشطرنج » بتشريحين ، في الأول كسر جمجمة هذا الفتى الجلف الغبى الخام المعتم الذى لاعمل لجسده الا أن يحجب الضوء دون أن ينبعث منه شعاع واحد يصافح به الكون والناس فيدل على يقظة انسانيته ، كيف ولماذا ومن أين تأتي له أن تتلأ في مخه الصدى موهبة واحدة فحسب هي موهبة لعب الشطرنج ، فيصبح على رقعة بطل العالم المنتصر في كل موقعة ، ان ما هو سر مخ الانسان وكيف يعمل وهل تترايط أو لا تترايط قنواته ، ما هو سر الذكاء ،

لاعب الشطرنج ١٤

أفمن الجائز أن ينحصر ويتخصص في بؤرة صغيرة في هذا المخ ومن حولها خلاء تام ، عن طريق جمجمة لاعب الشطرنج ؟ يريد زفايج أن يطل ونحن معه على مخ الانسان عامة ، ان سره يحيره ويشوقه ويتحداه .. التشريح الثانى لنفس لا لمخ ، نفس رجل متمدن مثقف متصل بالعالم أوثق اتصاله ، فعال ومنفعل ، مؤثر ومتأثر ، يريد زفايج أن يعرف التحولات البشعة التى تحدث لهذه النفس حين يحكم على صاحبها بالحبس الانفرادى في زنزانة ضيقة ، ليس بها الا طاقة صغيرة عالية ينفذ منها نور أقرع بلا مرئيات فهو والظلام سواء ، حتى الأصوات محجوبة عنها ، ليس فيها صحيفة أوكتاب أو ورقة أو قلم ، ولا زائر ، حتى الحارس يظهر دون أن يتكلم ، كل يوم كالأمس والغد ، كل لحظة كالسابقة واللاحقة ، أصبح والأشياء المحيطة به ، الفراش والمنضدة والصحن — من شدة الفه بها خليطا واحدا لا تدرى أهى من الأحياء أم هو من الجماد ، سترى دبيب التحطم والانهيار — قل الجنون — الى هذه النفس خطوة خطوة ، تحولات مرعبة ، ليست نفسية فحسب بل بيولوجية أيضا ، فأسر مساحة الزنزانة لقدمين — طولا وعرضا — سيظل عالقا بهما حتى بعد اطلاق سراحه ، قد اقنعنا زفايج أن اقصى تعذيب للانسان هو الحبس الانفرادى ، كل وسائل محاكم التفتيش بالنسبة اليه رحمة .

جمع زفايج في أقصوصته بين لاعب الشطرنج ونزبل الزنزانة بينان هيكلا بالتقاء المنفصلين ومشاركة المفردين كأنهما ابرنا تريكو تصنعان معا وكل منهما مستقلة نسيجا يتوالى نموها غرزة غرزة حتى يكتمل ، يصعب ان تفرق في عمل الأبرتين بين التوازي والتداخل

لاعب الشطرنج ١٥

وبينهما « ولس » لا يتقطع ، وهذا مثل فذ لبراعة زفايج في صناعة القصة وجبكها وتقصيلها ونركيبها وسوقها ونموها المطرد الى غايتها المقصودة على اتم وجه بحيث تستحيل الاضافة أو الحذف .

وأود أن أخبرك هنا للدلالة على قيمة هذه الأقصوصة وارتفاعها الى مرتبة النماذج أو الكلاسيكيات في الفن القصصى أن صحيفة (الموند) الفرنسية — جلييلة القدر — خرجت عن تقاليد الراسخة في اباء نشر قصة مسلسل على صفحاتها اليومية وقدمت لقرائها « لاعب الشطرنج » مسلسل في أواخر صيف سنة ١٩٧٢ ، حقا انها ركبت موجة الاهتمام بمباراة الشطرنج الدولية بين بوبى فيشر الأمريكى وموريس سناسكى الروسى في مدينة لايفايك ، ولكن لولا قيمة هذه الأقصوصة ورغبة الموند أن ترفع بفضلها اهتمام قرائها بهذه المباراة من مستوى نوادى هواة الشطرنج الى مستوى حضارى ونقائى رفيع ، لما ظهرت على صفحاتها سلسلة ..

لا أود أن أطيل عليك بسرد سيرة زفايج واحصاء لعماله العديدة ، ما أسهل أن تجد هذا كله في أحد المراجع لكن لا بد لى هنا أن أقول لك أن زفايج يهودى ، لم يخف عنا ديانتة على خلاف أندريه موروا الذى لم نعرف أنه أندريه هيرزوج الا بعد أن كتب سيرته الذاتية . وزفايج رغم ديانتته — ربما بسبب ديانتته — يزهو بأنه منتم الى حضارة غرب أوروبا المسيحية ، مؤمن بكل تقاليدها فلما رأى هذه التقاليد تتهاوى تحت ضربات هتلر وموسوليني حكم بأن هذه الحضارة قد أفلست وأن حياته هو قد أفلست أيضا ، كل شيء اذن زائف ، فلم يبق له الا أن يقتل نفسه فكان انتحاره آخر مأساة يؤلفها .

لاعب الشطرنج ١٦

وحين ننتقل الان من استيفان زفايج الى توماس مان،
من لاعب الشطرنج الى طونيو كروجر فاننا رغم وحدة
الشكل ننتقل من الضد الى الضد ، من الانتقاد والجيشان
الى الأناة والتأمل ، من نعمة الأنس بالبشر سواسبة
الى لعنة الاعتزاز بالتفرد والشذوذ . من لهفة الجائع
الى تأنيق الشبع ولكن ليس من الأفضل أن نؤجل هذا
الكلام لنجعله مقدمة للاقتصوصة الثانية نجدها بعد أن
نفرغ من لاعب الشطرنج .



لاعب الشطرنج



ساد الهرج والمرج كالعادة قبيل الإبحار على ظهر السفينة الكبيرة التى تزمع الإقلاع فى منتصف الليل من نيويورك الى بيونس ايرس . وتوالت وقود الركاب يصعدون الى السفينة يحيط بهم حشد من الأصقاء ، وأخذ سعاة مكتب البرقيات وقد مالت الكاسكيت على أذانهم . . يصيحون باسماء عبر الصالونات ، واختلطت شىالة الحقائق بحملة باقات الزهور ، وشرعت جموع من الصبية بدافع من حب الاستطلاع تستكشف السفينة طلوعا ونزولا ، كل هذا والفرقة الموسيقية تعزف الحائها كأنها لاتبالى بشيء .

التجأت للنجاة قليلا من الضجة والزحام الى المشى العلوى المجد لنزهة الركاب ، وشغلنى حديث مع صديق لى ، فاذا بوميض نور بتألق بالقرب منا مرتين أو ثلاثا . لا ريب انها آلات فوتوغرافية مصوبة نحو راكب ذى مقام لتصويره على عجل قبل السفر ، فالتفت صديقى نحوها وابتسم وقال :

— سترافقكم فى السفينة شخصية غدة .

ولسا رأى نظرتى لانتم عن الفهم أضاف موضحا :
— معكم سيركو زينتوفيك البطل العالمى فى لعبة الشطرنج ، لقد عبر الولايات المتحدة من الشرق الى الغرب وفاز فى كل المباريات ، وهاهو ذا يسافر الآن الى الأرجنتين للظفر بأمجادا أخرى .

(١) نشر نصها الاصلى بالالمانية اول مرة سنة ١٩٤٣ فى مدينة اسكهولم عن دار برمان فيشر .

لاعب الشطرنج ٢٠

تذكرت حينئذ خبر هذا الشاب وعجائب سيرته المدهشة ، وزودني صديقي — لأنه أكثر منى قراءة للصحف — بطائفة من النوارد التي تروى عنه فازددت به علما .

بلغ زينتوفيك منذ سنة تقريبا مرتبة أشهر أئمة لعبة الشطرنج مثل البكين ، وكابابلانكا ، وتارتا كوبر ، ولاسكار ، وييجو لجوبوف ، لم تبقى عند أحد منهم حيلة تخفى عليه ، ومنذ أن لمعت موهبته الخارقة المبكرة في مباريات نيويورك سنة ١٩٢٢ لم ير الناس فتى مغمورا مثله ينجح في تسليط أسطع الأضواء على هذه اللعبة وأبطالها ، ذلك أن مواهبه العقلية لم تكن قط تبشر بمستقبل باهر ، وسرت الشائعات بأن هذا البطل عاجز عن ان يكتب جملة واحدة حتى بلغته دون خطأ في قواعد الاملاء ، وقال عنه منافس له في سورة من الحق : انه جمع الجهل كله .

ولد زينتوفيك لأب بائس فقير من سلالة الصقالبة ، كان يعمل نوتيا في سفينة شراعية تلتزم نهر الدانوب فصدمتها ذات لية سفينة بخارية محملة بالقمح واغرقتها، وكان الصبى حين ذاق الينم قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، فاحتضنه قسيس القرية وبذل عن طيبة قلب وبأمانة غاية الجهد في أن يعيد على هذا الصبى الخامل الصموت دروسه التي تلقى عليه في المدرسة ، ولكن هذه المحاولات باءت بالافخاق ، يحنى ميركو جبهته الفسيحة على سطور سبق شرحها له أكثر من مائة مرة ، ويظل يحملق فيها بعين خالية من الفهم ، بل انه بعد أن بلغ الرابعة عشرة من عمره ظل لايعد الا على أصابعه ، لا يقرأ صحيفة أو كتابا الا بمشقة بالغة ، وما كان لأحد

لاعب الشطرنج ٢١

أن يتهمه بأنه لا يبذل غاية جهده ، كل أمر يتلقاه يؤديه بروح طيبة ، كحمل الماء وقطع الخشب والعمل في الحقل وتنظيف المطبخ ، وبعبارة موجزة ينجز بعناية كل عمل يكلف به ، وأن أداه ببطء يثير الغيظ .

ولسكن الطبع الذي أغم القسيس طيب القلب من تلميذه العجيب كان بالأخص عجزه المطلق عن الاهتمام بشيء ما ، فكان لايقوم بأى عمل من تلقاء نفسه ، لا يوجه أبدا سؤالا ، لا يلعب مع رفقاءه ، فما بكا دينتهى من عمل يتولاه حتى يتخذ له مكانا في حجرة النوم ، ينطق منظره بغياب الذهن وغموضه شأن منظر البهم السائمة ، لايلقى باله أبدا الى شيء يحدث أمامه . فاذا جاء الليل جلس قسيس القرية مع الضابط صديقه يلعب الشطرنج كعادته ثلاثة أدوار ، فكان الصبي حينئذ يقرب إليها جمته الشقراء وتيسر له على رقعة الشطرنج نظرية ساهمة كأنها أثقل الكرى أجفافه ، وحدث ذات ليلة والرجلان مستغرقان في اللعب أن نم صليل أجراس يقترب بسرعة عن مقدم عربة زحافة على الثلج ، ثم مالبث أن دخل مندفعاً فلاح قد غطى الثلج قبعته وناشد القسيس أن يصحبه ليؤدي طقوس الغفران الأخيرة لأمه العجوز لأنها تحتضر ، فلم يتأخر القسيس عن الخروج معه .

وبقى زميله الضابط وأمامه كوب من الجعة لم يتم شربه فأشعل غليونه وشرع يعالج وضع قدميه في حذاءه الثقيل ، تهيأ للخروج فاذا به يلحظ فجأة كيف أن نظرة ميركو بقيت ثابتة بأصرار على الرقعة التي بدأ عليها اللعب ثم توقف . فقال له مازحا :
— هيا ، أتحب أن تتم الدور معى ؟

لاعب الشطرنج ٢٢

ذلك أنه كان واثقا من أن هذا الصبي الخامل لا يحسن نقل قطعة واحدة ولو كانت بيدقا وفقا لاصول اللعب .
رفع الصبي رأسه بهتيب وأومأ اليه بالقبول ، واحتل مقعد القسيس فلم تمض أربع عشرة حركة حتى خسر الضابط الدور ، وأيقن أن هزيمته ليست عن إهمال منه ، فلعب دورا آخر فاذا به يخسره أيضا .
ولما عاد القسيس وعلم الخبر صاح قائلا :
— يا لها من معجزة ، لقد نطق لعمرى حمار النبی بلعام .

ثم مضى يشرح لصديقه — وهو أقل منه علما بالعهد القديم — كيف حدثت معجزة منذ ألفى سنة حين نطق حمار النبی بلعام فجأة بكلام كله حكمة .

وبالرغم من أن الليل كان قد تقدم فإن القسيس لم يستطيع كبح جماح رغبته في أن ينازل تلميذه فغلبه ميركو بسهولة ، كان يدير اللعب ببطء وعناد وهذوء ، له خطة محكمة لا تنكر ، وفي الليالي التالية لم يفلح القسيس ولا الضابط في الانتصار على هذا الصبي ولو مرة واحدة ، وشاق القسيس وهو يعلم مقدار غباء تلميذه في كل مجال آخر أن يعرف مدى هذه الموهبة الفذة ، فقاد ميركو إلى حلاق القرية فقص قصة له في لون الهشيم حتى لا يقتحم منظره العيون ، ثم صاحبه في العربة الزحافة إلى البندر المجاور ، إذ كان يعرف فيه رجلا مهموما بلعبة الشطرنج يجيدها خيرا منه ويعكف عليها الساعات الطوال في ركن من قهوة الميدان الكبير .

ودخل القسيس القهوة وهو يدفع أمامه فتى لم يبلغ الخامسة عشرة ، مصفر الشعر أحمر الخدين ، على كتفيه فرو خروف مقلوب ، فحلق إليه جالس

لاعب الشطرنج ٢٣

القهوة بدهشة وبقي الفتى مزروعا في مكانه قد غض من بصره في حياء ، حتى نودى عليه فأطاع وجلس يلعب فخسر أول دور ، لانه لم ير قط أسناده السابق ولا صديقه الضابط يلجأ في بدء اللعب الى الخطة التي تسمى « الدفاع الصقلي » وفي الدور الثاني نازله أمهر لاعب في القهوة فلم يخرج أحدهما غالبا أو مغلوبا ، ثم قهر بقية اللاعبين واحدا بعد آخر .

وهكذا اتيج لبندر صغير في يوغسلافيا أن يكون مسرحا لحادث مثير ، وأتيح لأعيانه أن يشهدوا الخطوات الأولى المذهلة لهذا البطل القروي ، وقر رأيهم بالاجماع على استبقاء هذا الفتى النابغة بينهم الى الغد حتى ينقلوا خبره الى بقية هواة اللعبة عندهم وعلى رأسهم الكونت سيمزك ، وهو رجل له هوس بلعبة الشطرنج أما القسيس — وقد بدأت نظرتة الى تلميذه ننطق بالفخر به — فقد شق عليه أن يهمل واجبات كنيسة واعلن انه لا يمانع في أن يبقى معهم تلميذه وحده لينازل بفئة اللاعبين . فحجزت له حجرة في فندق البندر ، ورأى تلك الليلة لأول مرة مرحاضا له سيفون .

وفي مساء الاحد وفي صالة مكتظة بالناس مكث هذا الفتى أربع ساعات وهو جالس لا يتحرك أمام رقعة الشطرنج وقهر كل منازليه ، لا بلفظ بكلمة ولا يرفع نظره ، تم اقترحوا عليه أن يلعب جماعة في وقت واحد وشق على أصحاب الاقتراح أن يفهموا هذا القروي المغلق الذهن معنى قولهم ، فلما فهم أخيرا أنهم يطلبون اليه أن يلعب وحده وفي الوقت ذاته عددا متفرقا من اللاعبين أنفذ لهم رغبتهم على الفور ، وأخذ ينقل من لاعب الى الآخر ولحذائه الثقيل صوت مسموع .

لاعب الشطرنج ٢٤

حينئذ بدأت مشاورات طويلة ، ومع أن هذا البطل الجديد لا يعد حقا من عشرينتهم إلا أن حب استئثار بلدهم بكل صيت حسن تملك قلوبهم ، فمن يدري ؟ لعل بندرهم الصغير الذي لا يكاد يتبين موقعه في الخرائط يذيع اسمه يوما لأنه موطن رجل شهير .

تقدم متعهد حفلات اسمه كيلر ، شغلته تقديم الراقصات والمغنيات الى الحانات ، وتطوع بأن يصبح الفتى الأعجوبة الى مدينة فينا ، وأن يقدمه هناك الى أستاذ مدهش — هكذا قوله — يتولى صقل موهبته ، وقال ان الأمر يتوقف على أن يتكفل واحد منهم بدفع نفقة إقامة الفتى في تلك العاصمة لمدة سنة ، وأذ كان الكونت سمزيك لم يلق طول حياته وهو يلعب الشطرنج منذ ستين سنة خصما بضارع هذا الفتى ، فإنه تقدم على الفور وكتب حوالة بالمبلغ المطلوب ، وهكذا بدا هذا الفتى القروى ابن النوتى يشق طريقه الى قمة المجد .

ولم يمض ستة أشهر حتى ألم ميركو بكل أسرار لعبة الشطرنج ، ولو أن ادراكه لها ظل في الحق داخل حدود ضيقة ، وقد انكشف قصوره هذا وأصبح موضع تنذر في المحافل التي ارتادها من بعد ، إذ كان لأبده أن يرى الرقعة والقطع ماثلة امامه ، وظل من دينه — حتى بعد ان ذاعت شهرته في أرجاء الأرض — أن يحمل في جيبه لعبة شطرنج في حجم صغير حتى يهتدى به حين يريد حل معضلة أو إعادة تمثيل دور لعبة أستاذ شهير هذا العجز — وهو هين في ذاته — دل على قصور خيالة ، وجرى نكره بالعجب على السنة المحيطين به كما تجرى السنة هواة الموسيقى بالعجب من أحد مهرة

لاعب الشطرنج ٢٥

العازفين أو قائدى الاوركسترا حين يثقل حركته غياب النوتة الموسيقية عن عينيه ، ولكن هذه الخلّة لم تعق ميركو عن أن يتوالى تألقه المذهل : فى السابعة عشرة من عمره كان قد نال أكثر من عشر جوائز ، وفى الثامنة عشرة أصبح بطل المجر ، وفى سن العشرين انتزع البطولة العالمية لنفسه ، وكشف بقية اللاعبين وهم يفوقونه بمراحل شاسعة فى الذكاء والخيال والجرأة عن عجزهم عن الصمود امام منطقته المحكم الصارم .

وكانت زمرة ائمة الشطرنج الى عهده لا تضم الا أمثلة متنوعة عديدة للذكاء الفائق — من فلاسفة وعلماء فى الرياضة وانذاذ وهبهم الله سعة الخيال وخصوبته بل من هؤلاء الآخرين من جمع الى موهبته قدرته على الابتكار ، فاذا بهذه الزمرة يقتحمها شخص غريب على عالم الفكر ، يطالعها به فتى قروى جلف صموت ، لم يفلح الصحفيون قط فى أن ينتزعوا من فمه كلمة واحدة تنفع مقالاتهم عنه .

ولكن لابس ، انهم يجدون اجزل العوض فى ذكر نواذره العديدة ، اذ ان هذا الفتى الذى لا ينكر أحد عليه موهبته اذا جلس الى الرقعة ، يصبح لحظة ان يفارقها شخصا يثير السخرية والهزء رغم وقار بذلته السوداء ومخفخة رباط رقبتة ، تزيينه لؤلؤة ثمينة ، ومع أن يديه تنمان عن فرط العناية بهما والالاحاح فى تلميع اظافرهما ، فانه ظل يحتفظ فى حركته وتصرفاته بهيئة القروى الجلف الذى طالما كنس حجرة القسيس فى عهد من عهوده .

وكان زملاؤه بيتسمون تارة ويتفجعون للفضيحة تارة اخرى حين يرونه وهو ينفى التجمل والخبيل ، لايشغل

لاعب الشطرنج ٢٦

فكره بشيء الا استغلال موهبته وشهرته ليعتصر منهما آخر قرش يستطيع أن يربحه ، لا ينكص من جشعه عن الانحطاط الى أحقر الدنيا ، في أسفاره العديدة لا ينزل الا في فنادق الدرجة الثالثة ، ولا يرفض أن يلعب في النوادي المغمورة مادام يحصل منها على أجره ، ورأى الناس صورته على اعلان عن صابون ، ولم يأبه لسخرية العالمين بعجزه عن أن يخط جملة واحدة صحيحة وباع اسمه لناشر ليضعه على كتاب يصدره بعنوان (فلسفة الشطرنج) ، والحقيقة أن هذا الكتاب هو من تأليف طالب من غاليسيا بتكليف من هذا الناشر البارع في تجارته كالآزرق الناب .

وفقد زينوفيك — ككل رجل عنيد — كل احساس ببواعث السخرية ، وظن نفسه بعد أن انتزع البطولة العالمية قد أصبح أهم شخص في الدنيا ، وحين ملا جنبه الزهو بانتصاره على أصحاب الذكاء الفائق وعلى المشهورين بقدرتهم على خلب الالباب بأحاديثهم الشيقة أو بتفوقهم في مجال الأدب ، وحين رأى بالاخص أنه يربح من المال أكثر منهم ، انقلب حياؤه الاصيل الى بجاجة باردة ، يعرضها بعجرفة سخيطة على الناس ولا يبالي .

واستطرد صديقي يروي لى نواذر اخرى عن سذاجة غرور زينوفيك وختم كلامه قائلا :

— ولكن كيف كان يمكن لمثل هذا النجاح العاجل الا أن يدير رأسا فارغا مثل رأسه ؟ كيف تريد من فتى فلاح من قرية مجهولة ، لا يزال في سن الواحدة والعشرين ، أن لا يدور رأسه وهو يرى أنه يكفيه نقل قطعة من الشطرنج على الرقعة ليربح من المال في أسبوع واحد

لاعب الشطرنج ٢٧

ما يفوق كل ما يربحه أفراد عشيرته في سنة كاملة بعمل شاق في الحقول والغابات ؟ أو ليس من الهين أن يحسب انسان نفسه رجلا عظيما اذا كان هذا الانسان يجهل أن الدنيا قد عرفت رمبرانت وبينهون ودانتى ؟ ان هذا الفتى الغض لا يشغل فكره الا بخاطر واحد ، هو أنه منذ شهور لم يخسر دورا واحدا ، لاعجب ان امتلا غرورا بنفسه لأنه في غفلة عن وجود قيم أخرى في هذه الدنيا غير الشطرنج والمال .

لم يخب كلام صديقى فى اشارة عجبى واهتمامى ،فانى
 اهتم دائما بدراسة اصحاب الفكرة الثابتة ، فمن خلال
 عالمهم الضيق نصل الى عالم لا نهائى ، هم وان عاشوا
 فى وحدة ظاهرة يبنون بها فى أيديهم من مواد خاصة
 بهم — وكما يفعل النمل — نماذج مصفرة لعوالم
 مدهشة ، فأعلنت لصديقتى عزمى على أن اراقب من
 كتب هذا المثل الفريد لحصر الذهن ونموه داخل مجال
 واحد ، وقلت اننى لتحقيق غرضى سوف أستغل على
 أحسن وجه هذه الايام الاثنى عشر التى تلزمنى للوصول
 الى مدينة ريو .

وحذرنى صديقتى قائلا :

— ان فرص التوفيق أمامك ضئيلة ، لا أعلم أحدا
 قد نجح فى أن ينتزع من زينتوفيك كلمة تنبئ عن ضميره .
 فهذا الجلف يخفى وراء غياهب غبائه مكرًا يتحرز به
 من كشف دخيلة نفسه والأمر سهل عليه ، فهو يتجنب
 الحديث الا مع أناس على شاكلته من القرويين الذين
 يصادفهم فى الفنادق الحقيرة حين ينزلها ، فان أحس أن
 محدثه رجل مثقف اختفى داخل قوقعته ، وهكذا لا
 يستطيع أنسان أن يفخر بأنه سمعه ينطق بكلمة
 تنم عن غفلته وغبائه أو بأنه استطاع أن يقيس مدى
 جهله .

وقد أثبتت تجربتى صحة قول صديقتى ، ففى الايام
 الاولى من الرحلة عجزت رغم كل جهد عن أن اتصل
 به ، الا اذا أقحمت عليه نفسى بقلة أدب ، وهذا ليس
 من طبعى ولا من عادتى .

لاعب الشطرنج ٢٩

كان يصعد الى سطح السفينة في اوقات عديدة ، ولكن له هيئة تنبىء انه يخلو لنفسه وأفكاره فيصعد الناس عنه ، يداه مشتبكتان وراء ظهره في وضع عرف به نابليون بونابرت بشهادة صورة شهيرة له ، ثم ينصرف فجأة وعلى عجل بحيث لا يبقى لمن يريد مخاطبته الا أن يجرى وراءه . لم يره أحد لا في (البار) ولا في حجرة التدخين ولا في (الصالون) ، وانضى الى أحد الخدم أنه قضى معظم وقته في حجرته يتدرب على اللعب بشطرنج من حجم كبير .

كفتنى الأيام الثلاثة الاولى لأن اقتنع بأن صدوده أقوى من رغبتى في انشاء صلة لى به ، وغاظنى اخفاقتى ، ولم يكن سبق لى أن أعرف عن قرب بطلا من أبطال الشطرنج ، وكلما حاولت أن أفكر كيف يكون هذا البطل زاد عجزى عن نظره ، ماهى حقيقة ذهن محصور طول العمر في رقعة منقسمة الى ٦٤ مربعا بين أبيض وأسود ؟ لاجرم أننى أعرف بالخبرة مدى السحر الخفى في هذه اللعبة الملكية التى تنفرد دون سائر الألعاب بتحررها الأسمى من نزوات الحظ وسلطانها ، لا يعود فضل الانتصار فيها الا للذكاء وحده ، أو على الأصح— لنوع معين من الذكاء . ولكن ليس في اطلاق وصف « اللعبة » على الشطرنج بخس من قدرها ؟ ليس الشطرنج علما وفنا أو شيئا يتراوح بين الاثنين ؟ أن تاريخ مولد الشطرنج يرجع الى أزمان موهلة في القدم ، ومع ذلك فهو جديد أبدا ، حقا ان قطعه تنتقل بحركة ميكانيكية يترتب بعضها على بعض ، ولكن الفوز يتوقف على ذكاء اللاعب وحده ، الشطرنج مقيد برقعة هندسية ثابتة ومع ذلك فلا حد لتعدد أشكاله وتأليفه ، انه دائم

لاعب الشطرنج ٣٠

الانكشاف ولكن بدون ثمرة وبلا هدف ، انه فكر لا يؤدي الى شيء ، وحساب لا يثبت شيئاً ، وفن لا يبقى له أثر ، وعمارة بلا قوالب ، ومع ذلك فقد أثبت انه بطريقته الخاصة ابقى من الكتب وكل الآثار الفنية . هذه اللعبة الفريدة تملكها كل الشعوب في كل الأوقات ، لأحد يحرى أى وحى وهب الشطرنج للبشر ليقتل الملل ويؤجج وينعش الروح . أين بدايته وأين نهايته ؟ يستطيع المصعب الصغير ان يتعلم قواعده ، وفي مكنة الجاهل ان يلم بها ويصبح صاحب مقدره لا مثيل لها اذا منحته الأقدار موهبة فهم الشطرنج ، واذا اجتمع الصبر وحذق أصول اللعبة يؤازرها نظر كاشف للأستار ، تأتي الوصول الى ابتكارات عديدة ، كما يحدث في علم الرياضة وفن الموسيقى والشعر .

لو أنيخ لرواد العلم الحديث في القرون الماضية أن بعاصروا بطلا في لعبة الشطرنج ، فلربما دفع شغف المعرفة بأستاذ من بينهم يعنى بعلم وظائف المخ — مثل الدكتور جال — الى أن يقوم بتشريح جبهة هذا البطل بعد موته ليعرف هل مخه ينفرّد بخصائص تميزه عن سائر الناس ، بأن تكون مادته السنجابية مختلفة ، أو أن يكون له أعصاب أو نتوء لا نرى في مخ أحد غيره ما أمتعه من انموذج للدراسة كان لا يمكن أن يقدره له الا رجل يجمع في آن واحد بين موهبة خاصة فائقة في لعب الشطرنج وخمول عقلى بلغ تمامه ، موهبته تندس في ذهنه كما يندس عرق الذهب في بطن الصخور السم .

حقا اننى افهم — من حيث المبدأ — أن لعبة لها مثل هذا التفوق النابغ قادرة على أن تجتنب فرسانا يجولون ويصولون في ميدانها شأن مسارعى الثيران في حلبتهم

لاعب الشطرنج ٣١

ولكن كيف يتأتى تصور نكاء يمضى عمره كله محصوراً في رقعة صغيرة ، لايشغله الا تحريك اثنتين وثلاثين قطعة الى الامام او الى الخلف فوق مربعات ببض وسود؟ وكيف ان كل مجد لصاحب هذا الذهن ينوقف على نجاحه في رسم هذه الحركات ؟ اى شىء هو هذا الرجل الذى يؤمن أنه اتى بعمل بطولى لجرد انه افتح اللعب بنقل الفرس بدل البيدق ؟

بفضل هذه الحركة يذكر اسمه في كتب الشطرنج ويشغل مكانه الصغير بين الخالدين . بل اى شىء هو هذا الرجل الذكى الذى يستطيع — دون أن يصاب بالجنون — ان تمضى عليه من السنين عشر وعشرون وثلاثون وأربعون وهو لا ينفك يكرس غاية طاقته الذهنية لبلوغ هدف سخيف وهو كيف يؤخر ملكا من خشب الى مربع في ركن الرقعة ؟

واليوم اجد لأول مرة بالقرب منى ، في السفينة التى تحملنى ، على بعد ست قمرات من قمرتى ، أنموذجا لهذه الموهبة الفذة ، لهذا النبوغ الفائق أو ان شئت لهذا الجنون الغامض . ومع ذلك لايتأتى لى أنا الاقتراب منه ، أنا الذى أهيم طول حياتى بعالم الذهن . شرعت ارسم لنفسى خططا سخيفة ، هل أزعم اننى مراسل صحيفة مشهورة واطلب منه حديثا ، أو أزعم اننى أعرض عليه جولة في استكلندا يربح منها مالا وفيرا ؟ وأخيرا تذكرت أن الصائديجتنب فريسته اذا قلدا صرختها في موسم التلاقح وقلت لنفسى ان خير حيلة تصيد بها لاعب الشطرنج هو ان يراك تلعبه أنت ..

أعترف اننى لست من المبرزين في الشطرنج فانى لالعبه الا التماسا للتسلية ، واذا جلست الى الرقعة

لاعب الشطرنج ٣٢

فلطلب الاسترخاء وصرف البال عن المشاغل ، ثم ان الشطرنج — كالحب — يتطلب اجتماع اثنين ، ولا أعرف هل بين الركاب من يلعبه غيرى وغير زوجى ، فمن أجل ان نتصيد لاعبى الشطرنج بيننا — ان كان هناك أحد منهم — انخذت أنا وزوجى مكانا لنا فى حجرة التدخين امام رقعة شطرنج ، وزعمنا اننا مستغرقان فى اللعب ، فلم نكد نمضى فى اللعب قليلا حتى وقف بجانبنا راكب تخطى عن نزهته وتبعه آخر وطلبا منا الاذن لهما بمشاهدة اللعب .

واخيرا تقدم راكب آخر واستأذنى فى ان اللعب معه، وهو مهندس اسكتلندى اسمه ماك كونور ، قيل لى عنه انه جمع ثروة طائلة من شق آبار البترول فى كاليفورنيا ، هو رجل ربيعة ، عريض الذقن ، سليم الأسنان ثراء تورد بشرته راجع الى غرامه بالويسكى، عريض الكتاف مما يدل على أنه صاحب عزم حتى فى لعبه ، فهو من جنس هؤلاء الرجال الذين لا تخطيء العين ان حياتهم ناجحة ، ويبلغ بهم الوثوق بالنفس الى حد أنهم يعدون هزيمتهم ولو فى لعبة مذلة لأشخاصهم، فان هذا العصامى اللحيم الذى الف الاستبداد برأيه وأن يأمر يخشونه فيطاع ، والذى رده النجاح الصادق غير المزيف الى طفل مدلل ، قد بلغ من غروره بتفوقه أن يعتبر كل معارضة له نوعا من الفوضى بل يكاد يعتبرها اهانة له .

خسر ماك كونور اول دور فتلكه الضجر والغيظ ، وأخذ يشرح بتدفق وبلمهة الوائق المطاع كيف انه لم يخسر الا لأن ذهنه قد سرح لحظة أثناء اللعب ، وخسر بعد ذك دورا ثانيا ، وعال هزيمته فى الدور الثالث بأن

لاعب الشطرنج ٢٣

ضجة في الحجرة المجاورة قد أفلقت ذهنه ، وكان اذا خسر الدور أصر على أن يلعب دورا جديدا ، وقد لذ لى أول الأمر أن أراقب استماتته في سبيل الفوز ، ثم قلت لنفسي ان اللعب معه عارض ثانوى في خطتى ليس من شأنه أن يفسدها .

وفي اليوم الثالث نجحت خطتى ولكنها نجحت نصف نجاح ، فالظاهر أن زينوفيك لحظنا من خلال النافذة وهو ينزله في المشى ، فهل بننازل يا برى وبشرفنا بانضمامه إلينا ؟

والذى حدث اننا رأيناه يخطو الى حجرة التدخين خطوات تبدو غير متعمدة ، فلما دخل القى من بعيد نظرة الخبير الى الرقعة التى هى ميدان فنه ، وكان ملك كونور آنذ ينقل بيدقا يا لسوء الحظ ! لقد كفت هذه الحركة وحدها أن تقنع الاسناذ الكبير بأننا غير جديرين باهتمامه والنزول إلينا من عليائه .

ابتعد زينتوفيك عنا وغادر حجره التدخين ، لفظنا بحركة من يدخل مكتبة للبحث عن كتاب قيم فنقع يده على قصة بوليسية رخصه قبيلوح بها على الفور دون أن يعنى بتقليب أوراقها ، فقلت لنفسي : وضعنا في الميزان فهان عنده قدرنا ، وشعرت بامعاض من نظرتة الدالة على احتقارنا ولم أسنطع أن اكنم ضيقى فقلت لملك كونور :

— الظاهر ان حركتك لم تعجب الاستاذ .
— اى استاذ تعنى ؟

فاوضحت له ان هذ الرجل الذى وقف الى جانبنا وألقى الى الرقعة نظرة تنم عن عدم الرضى انما هو زينتوفيك البطل العالمى للعبة الشطرنج ...

لاعب الشطرنج ٢٤

ثم أضفت :

— لا حيلة لنا الا ان نقبل احتقاره ونحتمل اهانهه
بنفس قاتعة ، كما يقنع الفقير بطبخ اكله بالماء ان فانه
الدهن .

ولكن قولى هذا وما جعلته ينم الا عن تجردى وحيادى
كان له وقع مذهل عجيب . ، فقد اضطرب ماك كنور
وهاج ، وتخلّى عن الدور الذى بداه ، وانتفخت اوداجه
من شدة تملله لجرح كرامته ، وقال انه لم يكن يعلم
ان زينتوفيك مسافر معنا ، وانه اذن لابد ان ينازله ،
لانه لم يلعب من قبل مع بطل من أبطال الشطرنج الا
مرة واحدة ، حين نازل فى لعبة جماعية احد هؤلاء
الأبطال ، وكاد يكسب الدور ، وسألنى هل زينتوفيك
من خلطائى ؟ فلما نفيت له ذلك اقترح على ان اذهب
واقابله لأرجوه الانضمام الينا ، فرفضت متعللا بأن
زينتوفيك لا يحب فى مبلغ علمى ان يوسع دائرة خلطائه،
تم قلت واى متعة لبطل مثله ان يلعب مع هواة من
الدرجة الثالثة مثلنا ؟

اعترف اننى اخطأت ، كان الحرص يقتضىنى ان لا
أرمى بعبارة اللاعبين من الدرجة الثالثة امام رجل
مغرور مثل ماك كونور .

مال صاحبنا بظهره الى الوراء وقال بلهجة خشنة :
انه يعتقد ان زينتوفيك لا يسعه الا القبول اذا دعاه سبدا
مهذب ، وانه هو نفسه سينكفل بدعوته وطلب منى
ان أحيطه علما به فأمدده بوصف موجز لزينتوفيك ،
 فلم أكد أفرغ حتى انطلق يبحث عنه على ظهر السفينة
ورأيت مرة أخرى كيف يكون من العبث أن تحاول
أثناء رجل له مثل هذه الاكلاف العريضة عن تنفيذ

لاعب الشطرنج ٢٥

فكرته ، ومكنت أنتظر النتيجة في شيء من القلق والنوجس وعاد بعد عشر دقائق ووجهه ينطق بالغضب وقال :

— أصبت ، ان هذا الرجل جلف ، قدمت له نفسي وعرفته بمقامي فلم يتنازل حتى أن يمد لي يده ، فبذلت غاية جهدي لاقتناعه بأن جميع المسافرين يسرهم غاية السرور ان يلعب معنا نحن لعبة جماعية ، ومع ذلك لم يلب جانبته وقال انه يأسف اذا رفض الدعوة لأنه مرتبط بعقد يلزمه بأن لا يلعب خلال جولته الا بأجر ، لذلك فهو مضطر لان يطلب منا ان ندفع له ٢٥٠ دولارا على الأقل عن كل دور ..

فاندفعت ضاحكا وقلت : ماكنت أحسب قط ان نقل قطعة من الخشب من مربع أبيض الى مربع أسود يدر مثل هذا القدر الكبير من المال ، أمل ان تكون قد ودعته وأنت تفارقه وداعا جميلا لا لقاء بعده .

ظل ماك كنور محتفظا بسمة الجد وقال :

— سيجري اللعب في الساعة الثالثة عصر الغد في حجرة التدخين هنا ، وأرجو أن نصمد فلا تلحقنا هزيمة ساحقة ..

فصرخت فيه والأسف يملؤني : ماذا ؟ هل قبلت شروطه ؟

— ولم لا .. انها مهنته ومورد رزقه ، فلو وجعني ضرسي وكان معنا على السفينة طبيب أسنان لما طالبتة ان يخلعه لي مجانا ! ان زيتونيك على حق ، ككل رجل حاذق يحسن تدبير أموره وأما عن نفسي فاني أومن في الصفقات بالمثل القائل « الشرط نور » فاني أفضل أن أدفع الأجر حتى لا يكون اعتمادي وحده على ظرفه ولطفه اذا اكتفيت بشكره بعد نهاية اللعب . تم انه يحدث لي

لاعب الشطرنج ٣٦

ان اخسر في ليلة واحدة في النادي أكثر من ٢٥٠ دولارا
دون أن أحظى باللعب مع بطل عالمي ، ولا ضمير على
لاعب في الدرجة الثالثة أن — يهزم أمام زينوفيك .

أمدني قوله هذا بدليل على اننى حين وصفته ببراءة
وحسن نية بأنه لاعب في الدرجة الثالثة قد أصبت كبرياءه
بجرح بليغ لا يزال له نغز يلح عليه ، ولم يسعنى الا أن
أوافقته مادام قد اعتزم ان يدفع من أجل متعته هذا
المبلغ الكبير ، انه سيتيح لى الفرصة لأن أشهد عن
كتب هذه الشخصية التى أنارت اهتمامى ، وسارعنا
بإبلاغ الخبر الى أربعة أو خمسة من المسافرين نعرف
انهم من هواة الشطرنج . وتأميننا لراحتنا غدا حجزنا
جميع المقاعد القريبة من مجلسنا .

لم تأذن الساعة المتفق عليها حتى النام شمل زميرتنا الصغيرة ، وتخلينا بطبيعة الحال الى ماك كنور عن المقعد المواجه لمقعد الاسناد ، وأخذ صاحبنا الاسكتلندي — وقد استبد به القلق — يدخن سيجارة اثر أخرى ، ولا ينفك ينظر الى الساعة المعلقة على الجدار ، ولطعنا زينتوفيك عشر دقائق بعد موعده دلالة على مقام بطل شهير ، فلم يدهشنى ذلك منه بعد أن عرفت مسلكه مع ماك كنور ، وأخيرا هل علينا بوجه يبلغ نطقه بالوثوق بالنفس حد البجاجة ، وخطا الى المنضدة خطوات متثددة مرسومة ، ولم يقدم نفسه اليها ، كأنه يقول لنا «أنتم تعلمون من أنا ولا يهمنى فى شىء أن أعلم من أنتم » وبدأ صف قطع اللعب بخشونة المحترفين ، وتعذر أن تدار بيننا وبينه لعبة جماعية ، إذ لم يكن بالسفينة عدد من رقع الشطرنج يكافئ عدد أفراد زميرتنا كلهم ، فاقترح زينتوفيك علينا أن ينضم بعضنا الى بعض من جهة واحدة نلعب ضده ، وعرض علينا أيضا أنه بعد كل حركة منه سيبتعد عن المنضدة الى نهاية الحجرة ليخلو لنا الجو لتبادل الراى بيننا ، وأن نقرع كويا من الزجاج بملقعة — فليس عندنا جرس — كلما فرغنا نحن من حركة ، وأن لايزيد الوقت بين حركة وأخرى — اذا وافقتا — عن عشر دقائق ، فقلنا بطبيعة الحال عروضه كلها ونحن أشبه بتلاميذ غلبهم التهاب والحياء . وخرج اللون الاسود فى القرعة من نصيب زينتوفيك فكان رده على أول حركة منا نفتتح بها نحن اللعب أن نقل على الفور قطعة من القطع وهو

لاعب الشطرنج ٢٨

واقف لايبالي أن يجلس ، ثم مضى لنوه الى نهاية الحجرة يحتل المقعد الذى اختاره للبقاء فيه الى أن تنتهى نحن من التشاور ، وشرع ينصفج باهمال مجلة مصوره . لاجدوى فى ان أروى هذا الدور بالتفصيل ، حاقت بنا هزيمة ساحقة بعد ٢٤ حركة ، واى عجب فى أن ينتصر بطل عالمى على عدد من أوساط اللاعبين .

ولكن الذى أغمنا أكثر من الهزيمة هو اعتداده بنفسه وتعمده أن يشعرنا بنفوقه ، لايلقى الى الرقعة الا نظرة عارضة ، ولا الينا الا نظرة عابرة باهمال ، كأننا أيضا قطع من الخشب ، أو كلاب جرب يلقي اليها المار بعظمة من وراء ظهره ، وقلت لنفسى : لو حباه الله شسبنا من الرقعة لتنازل ونبهنا الى الأخطاء التى نرتكبها أو شجعنا بكلمة طيبة ، ولكن كلا . مكاد الدور ينتهى حتى نطقت هذه الآلة الصماء قائلة « كش الملك — مات الملك » ثم ظل واقفا صامتا لايسحرك ينتظر أن يعرف هل نرغب أولا نرغب فى أن نلعب دورا ثانيا ؟ صفاقة هيهات أن تقاوم

وكنيت قد قمت من مقعدى معلنا بذلك أن هذه هى نهاية لهونا ، واذا بى لشدة دهشتى أسمع ماك كنور يقول بصوت مبجوح
— نلعب دورا ثانيا !

قالها بلهجة تحد أخافتنى ، وبدا لى ماك كنور فى تلك اللحظة لافى صورة السيد المهنبل فى صورة الملاكم الذى يسعد لتوجيه ضربه . أبرجع سبب لهجنه الى معاملة زيتوفيك لنا بغلظة ؟ أم الى مافى طبع ماك كنور من غرور مريض ؟ على كل حال تجلت لنا منه صورة غير صورته المألوفة . اشتد احمرار وجهه

لاعب الشطرنج ٣٩

حتى بلغ منبت شعره . اتسع منخرا أنفه ، ويتنفس بصوت ويعض على شفته . وارتسم أخدود عميق بين فمه وذقنه العريض ، وعرفت بجزع في عينيه طريق النلاف الجنوني الذي لا يصيب عادة الا المقاهرين لاعبي الرولين الذين يضاعفون رهانهم لسادس وسابع مرة على لون لا يخرج لهم . ان غروره الأحق سيستنزف كل ماله وسيظل يلعب مع زينتوفيك مرة بعد أخرى على أمل ان يفوز بدور واحد على الأقل ، واذا وجد منه مطاوعة كان له بمنابة النجم الذي يستنزف منه بضعة آلاف من الدولارات قبل ان نبلغ بيونس ايريس ، اما زينتوفيك فقد ظل جامدا لا ينطق وجهه بشيء .. ثم قال :

— الأمر لكم . اللون الأسود هذه المرة من نصيبكم . ومضى الدور الثاني كاللور الأول وان زادت حلقتنا قليلا بانضمام بعض من سائقهم اليانا حب التطلع وتسمرت نظرة ماك كونور على الرقعة كأنه يريد أن يسحر قطع اللعب بتيار مغناطيسي يقودها الى النصر ، وشعرت أنه على استعداد لان يدفع ألف دولار لو أسعده الحظ بأن يصرخ « كش الملك .. مات الملك » في وجه غريمه الذي لا يعرف المجاملة . وانتقل اليانا بالعدوى شيء من حماسه واصراره ، فأخذنا نناقش كل حركة وقد ازداد هياج نفوسنا ، ولا نتفق على رأى الا قبيل انتهاء مهلته من قبل ان ننادي زينتوفيك ليعود اليانا . كنا قد وصلنا آنئذ الى الحركة السابعة عشرة فاذا بنا لشدة دهشتنا نرى اللعب يتحول الى مصلحتنا اذ نجحنا في أن ننفع ببندق الى الصف السابق للصف الأخير ، ولم يبق الا ان نقدمه خطوة واحدة حتى

لاعب الشطرنج ٤٠

يستبدل بهذه القطعة وزير ، ولم تكن في الحق على نقرة بان الحظ قد ابتسم لنا ، وخامرنا جميعا شك في مكر زينونوفيك . انه ولا ريب ينظر ابعد منا ، انه يقدم لنا هذا الطعم لغرض يئكنمه واجهدنا انفسنا في البحث والنقاش حتى نكتشف هذا الغرض فلم نوفق .

واخيرا اقتربت المهلة من نهايتها وكان رأينا قد استنقر على اغتنام الفرصة وتقديم البيدق وكاد ماك كنور يدفعه الى الصف الأخير « فاذا برجل يمسك ذراعه ويهمس في اذنه « اياك أن بفعل بالله عليك » ، التفتنا اليه جميعا على غير ارادة منا رأينا رجلا قارب الخامسة والاربعين ، له وجه مكنز بادی العظام وكنت قد صادفته من قبل على ظهر السفينة وراعى منه شحويه الشديد ، لاشك انه كان قد اقترب منا ، ونحن مستغرقون في تدبر حل للمعضلة التي تواجهنا ، فلما احس بنظرنا سبت عليه اضاف :

اذا قدمتم البيدق الآن واستبدلتم به قطعة الوزير ، بانه سيهاجمكم بالفيل ، فنردون الهجوم بتحريك الفرس ، ولكنه يكون قد هدد قلعتكم ببندقه ، وحتى لو ضحينم بالفرس فان الهزيمة ستحقق بكم بعد الحركة التاسعة او العاشرة ، ان الوضع الذي أنتم فيه يشبه الى حد كبير وضع الدور الذي لعبه اليكين مع بوجولشوبوف في المباراة الكبرى سنة ١٩٢٢ بمدينة ببستيان .

عدل ماك كنور — وقد علمه الدهشة — عن تقديم البيدق ، وكان لا يزال محتفظا به في يده ، واخذ يتأمل في عجب — شأننا جميعا — هذا الرجل الذي كأنها هبط علينا من السماء كالمالك الحرس . ان رجلا يستطيع من سابق ان يحزر مجرى اللعب بمقدار تسع حركات لا بد

لاعب الشطرنج ٤١

أن يكون من أئمة المحترفين بل لعله من قرناء زنتوفيك،
وسافر أيضا للاشتراك في المباريات ذانها ، وعددناها
من قبيل المعجزات أن يقدم لنا هذا الرجل ويرشدنا
في عز الوقت الذي بلغ بنا الحرح ذروبه ، وكان ماك
كنور هو أول من استفاق من الدهشة وهمس له وقد
هاجت نفسه :

— بماذا تنصحنى .

— لا يقدم البيدي الآن ، وبجنب خصمك ، عليك
أول كل شيء أن ترحزح الملك عن موضعه ، ففيه يكمن
الخطر . أن خصمك سيهاجم من الجناح الآخر ، وحينئذ
تصدونه بالقلعة ويخسر بذلك بيدقا كما يخسر تفوقه
عليكم ، وإذا أحسنتم الدفاع خرجتم لاغالبين ولا مغلوبين
هذا غاية ما تبلغونه من هذا الدور .

انتقلنا من دهشة الى دهشة أكبر ، وبهرنا منه هذا
التجديد للحركات وهذه السرعة في حسابها ، وخيل
الينا أن هذا الرجل يقرأ الحركات من كتاب وأنه لايعزى
الا لمعجزة خارقة خروجنا من اللعب مع بطل عالمي
لاغالبين ولا مغلوبين ، وترحزحنا جميعا بحركة واحدة
بلقائية لنفسح له موضعا ينيح له رؤية أفضل للرقعة
وكرر ماك كنور سؤاله :

— هل أنقل الملك ؟

— بلا ريب . . بذلك تتجنب خصمك .

أطاعه ماك كنور وقرعنا الكوب فاقترب منا زنتوفيك
خطواته الهائلة المبهتة ، وكفته نظرة واحدة لأن
يتدبر رده على حركته ، ثم قدم بيدقا في الجناح الآخر
كما توقع منقذنا المجهول ، الذي همس من بوه وقد
احتد صونه :

لاعب الشطرنج ٤٢

— القلعة ، قدموا القلعة ليضطر الى حماية بيدقه
ولن ينفعه هذا في شيء ، ستهاجمونه حينئذ بالفرس ،
وبذلك نعود المساواة بينكما كما كانت ، نم يبدأ هجومكم
ولن تكونوا في حاجة الى التزام الدفاع .

لم نفهم شيئاً من قوله كأنها كان يتكلم باللغة الصينية،
واستخذى له ماك كنور وانفذ نصيحته دون أن بجهد
فكره ، وقرعنا الكوب من جديد ، ولأول مرة لم يسارع
زينتوفيك الى اللعب من فوره ، بل ظل يتأمل الرقعة
طويلاً ثم حرك القطعة التي تنبأ بها صاحبنا المجهول
وتهياً للابتعاد عنا .

حينئذ وقع حادث جديد غير منظر .. رفع زينتوفيك
بصره وجال به بيننا ، انه يحاول وريب ان يدرك من
منا قد صعد له فجأة ، وأصبح هياج نفوسنا منذ تلك
اللحظة لايعرف له حدا ، كنا نلعب بلا أمل ، فاذا بدمنا
تلهبه فكرة تحطيم زينتوفيك وكبريائه الباردة ، وكان
صاحبنا المجهول قد فرغ من تدبير الحركة التالية
فارتعشت أصابعي وأنا أتناول الملعقة لأقرع بها
الكوب لاستدعاء زينتوفيك .

دقنا حينئذ لذة أول انتصار لنا ، فان البطل الذي
لم يشأ من قبل أن يلعب الا واقفا تردد هذه المرة ثم
تردد ، ثم انتهى تردده بأن جلس وهو كساره ، ناركاً
جسمه يهوى الى المقعد مائلاً وله ، انه كف عن أن يسلن
بالواقع المحسوس استعلاءه علينا ، قد أجبرناه على
النزول البنا لننقى جميعاً في مستوى واحد في فضاء
الكون على الأقل ، أطل زينتوفيك الاستغراق في التفكير
ورأسه محية على الرقعة الى حد أننا عجزنا عن رؤية
مقلتيه من تحت جفنيه الثقيلتين ، وأجبرته شدة الجهد

لاعب الشطرنج ٤٣

الذى يبذله أن يبقى فيه مفسوحا ، واكتسى وجهه المستدير بشيء من بلاهة الأطفال ، وبعد مضي بضعة دقائق لعب لعبته ونهض فمتم صاحبنا .

— أجاد اللعب وجنب الخطر ، ولكن إياكم أن يخدعكم ، العبوا بحيث لا يبقى له خيار في لعبته القادمة إذا أردتم الخروج من الدور لآغالبين ولا مغلوبين ، لأشياء الآن يستطيع انقاذه .

أطاعه ماك كنور ، وانحصر اللعب بعد ذلك بين الخمسين ، ونحن كأننا زهرة من الكومبارس لأنهم شبنًا ، وبعد ست أو سبع نقالات بقى زينتوفيك مستغرقا في التفكير ثم أعلن :
— الدور « باطة » .

وأطبق السكون الشامل علينا لفترة من الزمن ، وبدانا فجأة نسمع بوضوح خرير الأمواج وموسيقى الجاز الخافتة المنبعثة من مذياع في الصالون المجاور ، وأصبح لوقع أقدام المتنزهين على سطح السفينة صوت بين يصل إلينا ، بل انبهرت آذاننا لهذا الصرير الخفيف الذى يحده الریح وهو يمر من خصائص النوافذ .

كتمنا أنفاسنا لشدة الدهشة من انقباض هذه المبالغنة علينا ، وراعنا أن حدث أمأنا شيء يجل عن الصديق : كيف استطاع رجل مجهول أن يوقع ببطل على نصف هزيمة ؟ مال ماك كنور فجأة الى الموراء وندت من فمه صرخة تدل على الغبطة والفرح ، وكنت أراقب زينتوفيك فخبلى الى أن وجهه قد شحب قليلا أثناء الحركات الأخيرة في الدور ، ولكنه عرف كيف بتمالك نفسه وظل على جموده وقلة مبالاته ، ثم رفع ققطع الشطرنج بيده وقال بصوت عاطل لاينم عن دخيله

لاعب الشطرنج ٤٤

ضميره .

— هل تريدون أيها السادة ان نلعب دورا ثالثا .
القى سؤاله بلهجة من يتحدث عن مسألة لا تمس
شخصه ، كأنه رجل أعمال يتكلم عن صفقة تأتي
وتروح .

ولكنه حين نطق بسؤاله لم يوجهه الى ماك كنور ،
بل مذهب بنظرة نفاذة ناحية منقذنا المجهول ، وكما ان
للفرس احساسا يدرك به لحظة أن يمتطيه انسان هل
هو راكب خبير أم غير خبير فكذاك زينتوفيك ، لاشك
أدرك باحساس له أثناء الحركات الأخيرة في الدور أي
رجل هو خصمه ، لاحظنا جميعا نظرتة على غير ارادة
منا والتفتنا ناحية الرجل المجهول ، لم يترك له ماك
كنور وقتا يتدبر فيه امره أو ينطق باجابته ، بل صرخ
اليه وقد انتفخت أوداجه من زهو الانتظار :

— نوافق على العين والראس ولكنك ستلعب انت
وحدك معه ، أنت وحدك ضد زينتوفيك .

حينئذ وقع حادث غريب ، كان الرجل المجهول قد
بقى يتأمل الرقعة الخالية باستغراق غير مفهوم ، فاذا بنا
نراه حين أحس الانتظار نبت عليه وتناشده بالحاح —
ينفض قفزا من مكانه وقد اضطرب ايما اضطراب ، وتمتم
بارنباك :

كلا . كلا . هذا محال . أيها السادة . اننى لا استطيع
أن أستجيب لكم ، لقد مضى على عشرون أو خمس
وعشرون سنة دون أن يقع نظرى على رقعة شطرنج،
لقد أقمحت نفسى عليكم بغير اننكم ، وأدرك الآن فحسب
أن هذا الإقحام كان حماقة منى ، أرجوكم الصفح عن
طفلى يعاهد نفسه ان يتوب توبة نصوحا ، صدقونى؟

لاعب الشطرنج ٥٠

ثم غادر الحجرة من قبل ان نستفيق من دهشتنا .
صرخ ماك كنور وهو يغلى ويضرب المنضدة بقبضة يده .
— في المسألة سر لابد ان نعرفه أهذا شأن رجل زعم
انه لم يلعب الشطرنج منذ خمس وعشرين سنة ؟ هذا
مستحيل . انه كان يتدبر بامعان كل حركة ويحرز خطة
خصمه قبل سقوطها بوقت طويل ، ليس في قدرة انسان
ان يلعب هكذا اعتباطا . . هذا شيء مستحيل كل
الاستحالة .

والتفت ماك كنور عن عمد الى زينتوفيك وساله :
— الست من هذا الراى .
ولكن الرجل ظل جامدا ثم قال .
— لااستطيع أن أحكم ، في الحق ان هذا السيد له
فن يلفت النظر لذلك تساهلت ورضيت أن اترك له
فرصة يثبت فيها تفوقه .
ثم نهض وأضاف وهو غير مبال :

— اذا أحب أحد منكم أيها السادة أن يلعب غدا فانى
رهن مشيئته هنا ابتداء من الساعة الثالثة من عصر
المقد .

لم نقو على كتم ابتسامة علت شفاهنا ، كنا نعلم
جميعا أنه اذا كان قد خسر الدور فمكره أخاك لا يبطل !
وان كلامه عن تساهله حيلة ساذجة يخفى بها نكته
فازدادت رغبتنا في اذلاله وارغام أنفسه في التراب ،
وتبدل حالنا : لم نكن الى تلك اللبلة الاركاب سفينة
ينعمون بالتنقل بين الدعة والكسل ، فاذا بنا نتحول
فجأة الى أناس تملكهم الضراوة وشهوة القتال ، حين
جال في أذهانهم أن هذه السفينة التى تمخر عباب المحيط
قد تشهد مصرع زينتوفيك . . انه خبر يذاع من فوره

لاعب الشطرنج ٤٦

بالراديو على العالم اجمع . . ومما زاد في هياج نفوسنا هذا السر الغامض الذى احاط بمعتقدنا المجهول ، وهذا التناقض الواضح بين غلو نواضعه وبجاجة كبرياء اللاعب المحترف .

من هو هذا اللاعب المجهول ؟ هل اتاح لنا الحظ ان نكتشف للعالم لاعبا عبقريا جديدا ؟ ام تراه بطل ذائع الصيت اخفى عنا اسمه لسر محجب ؟ واخذنا ندير بيننا هذه الأسئلة وقد بلغ بنا الهياج قمته ، وكان كل احتمال نفرضه — وان شططنا في الخيال — لا يسعفنا في التوفيق بين تهيب الرجل المجهول . واعتراه المذهل ، بالرغم من ان تفوقه البين في لعب الشطرنج يكنه . ولكننا كنا جميعا على اتفاق حول مسألة واحدة ، وهى رغبتنا بأى ثمن ان نحمل الرجل المجهول على قبول اللعب مع زينتوفيك ، وتكفل ماك كنور بأن يتحمل عنا بماله عبء المجازفة بالرهان ، وكنا قد علمنا حينئذ من احد الخدم ان اللاعب المجهول من أبناء النمسا ، فعهد الى لائنى من مواطنيه ان اتقدم اليه برجائنا .

لم يطل بحتى عنه ، وجدته ناجيا بنفسه فوق ظهر السفينة . مسترخيا على اريكه وهو يقرأ ، واخذت اتأمله مليا قبل ان اتقدم اليه اسند الى الوسادة رأسه البارزة عظامه ، كأنها يحس بشيء من النعب ، وراعى من جديد شحوب وجهه بالرغم من انه لم يتجاوز كثيرا مرحلة الشباب ، وحين رايت ابيضاض شعره لا ادرى لماذا خيل الى انه شاب قبل الاوان . فلما اقتربت منه نهض بأدب وحفاوة وقدم الى نفسه ، ذكر لى لقباً هو من القاب الأسر النمساوية العريقة ، يشاركه فيه صديق كان لشوبرت الموسيقار العظيم ، وبعض

لاعب الشطرنج ٤٧

أطباء الامبراطور .

أخبرته برجائنا فبدت عليه دلائل الحرج ، واكتشفت أنه لم يكن يحسب قط أنه نازل بطلا من أبطال لعبة الشطرنج ، فكيف يحسب أنه نازل أشهر الأبطال ، وراعه الخبر لما بلغه منى ، وأخذ يسألنى مرارا هل أنا واثق مما أقول ؟ وهل غريمه هو حقا بطل له مثل هذا الحسب الذائع ، وقد هون مسلكه على سفارتى ، ولكنى لما أحسست بفرط رفته رأيت من الأليق أن لا أذكر له شيئا عن تحمل ماك كنور غرامة المجازمة باللعب ضد زينتوفيك .

نردد السيد « ب » برهة طويلة ثم قال انه يقبل النحدى ، وأضاف بابتسامة من ورائها فكرة :

— قل للسادة أصحابك أن لا يعلقوا على فى غلو آمالا عريضة ، فالحق أننى أجهل هل أنا قادر أو غير قادر على أن اللعب دور شطرنج طبقا لقواعده وأصوله ، صدقنى ، لم يكن قط من قبيل التواضع الكاذب تأكيدى لكم بأننى لم أمس رقعة شطرنج منذ أن كنت طالبا فى المدرسة الثانوية ، أى منذ أكثر من عشرين سنة ، بل لم أكن حينئذ إلا لاعبا مبتدئا لا خطر له .

قال قوله هذا بشيء كثير من البساطة فما شككت فى صدقه ، ومع ذلك لم يسعنى إلا ابداء دهشتى من مقدرته على تذكر خطط أئمة أبطال الشطرنج الذين جاء ذكرهم على لسانه ، وقلت انه كان ولا ريب مهموما بالشطرنج على الأقل من حيث دراسته النظرية .

فلما سمع كلامى عادت من جديد نعتلى قمه ابتسامته العجيبة الحاملة وقال :

— نعم ، ما كان أشد همى بالشطرنج ! أنت صادق فى عجبك ، ولكن خبرتى بالشطرنج قد اكتسبتها فى

لاعب الشطرنج ٤٨

ظروف معينة ، بل فريدة في نوعها ، انها حكاية معقدة ، كل نفعها أنها تقدم لك صوره عن ظروف مرت بنا ، ان صبرت نصف ساعة رويتها لك :

دعاني بإشارة من يده الى الجلوس على الأريكة التي تجاور أريكته ، كنا وحدنا ، وخلع السيد نظارته وبدأ حديثه :

لقد تفضلت وذكرت لى أنك من أبناء مدينة فينا ، وأنتك على علم بلقب أسرتى ولكنى لا أحسب أنك سمعت بخبر مكتب المحاماة الذى كنت أديره أولا مع أبى تم وحدى من بعده ، ذلك لأننا كنا لا نترافع في القضايا الشهيرة التي تروى الصحف أنباءها ، ولا كنا حريصين على زيادة عدد الموكلين ، وان شئت الحقيقة فاننا لم نكن نمارس مهنة المحاماة بمعناها في عرف الناس ، لا نذهب للمحاكم ، بل اقتصر عملنا على الاستشارة القانونية ، وعلى ادارة املاك الاديرة الكبيرة ، وكان أبى وثيق الصلة بها ، اذ سبق له أن دخل البرلمان نائباً عن حزب رجال الدين ، واستطيع اليوم أن أفضى اليك — فقد زال النظام الملكي من النمسا — أن أغلب أفراد أسرة الامبراطور عهدوا إلينا أيضا بإدارة أموالهم ، وقد توارثت أسرتى علاقتها بالقصر ورجال الدين منذ جيلين سابقين لجيلي ، كان أحسد أعمالى طبييبا للامبراطور ، وعم آخر قسيسا ، فلم يكن يطلب منى بذل جهد الا في ادامة هذه الصلة الموطدة . واتصف عملى بالسكينة والهدوء والصمت . عمل ورنثه عن آبائى ، لا يتطلب للمحافظة عليه الا أقصى درجات الكياسة وكنمان السر والأمانة الموثوق بها ، وكان أبى مضرب المثل في التحلى بهذه الصفات ، ونجح في أن يستنقذ لموكلبه قدرا كبيرا من تروتهم بالرغم من

لاعب الشطرنج ٤٩

التضخم المالى والثورة .

فلما نولى هتلر سلطة الحكم فى ألمانيا ، وبدأ يتهب الأديرة والكنائس نولى مكتبنا عقد صفقات وانفاقات كثيرة من وراء الحدود ، وكان الغرض منها حماية موكلينا من مصادر أموالهم . . أموالهم المنقولة على الأقل ، وكنت أنا وأبى فى ذلك الوقت نجهل دخائل سياسة روما وسياسة البيت الإمبراطورى ، ولا اظن أن الجمهور سيعرف هذه الدخائل فى يوم من الأيام ، ولكن شهرتنا بالأمانة وكتمان السر ، وحرصنا على تجنب اعلان صلتنا بالأحزاب الملكية ، ثم ساعدنا إزالة لافتة المكتب عن بابه . . كل ذلك كان مدعاة لأن يجنبنا كل ريبة ، فلم تكن فى النمسا أنتذ جهة رسمية يخطر ببالها أن يرصد الإمبراطور السرى ينسرب عن طريق مكتبنا المتواضع ، الكائن فى الطابق الرابع فى إحدى عمارات فيينا . كأنه مكتب بريد سرى .

وكان النازى قبل أن يبدأ هجومهم على العالم قد اعدوا فى كل البلاد المجاورة لألمانيا أنصارا لا يقلون عن جيشها فى الخطر والتدريب . يصطفونهم من بين الممرورين والفاضبين ، وقلما يخلو منهم نظام من أنظمة الحكم أيا كان ، عملهم أن يندسوا فى كل مكتب وفى كل مؤسسة ، بل كان من بينهم جواسيس فى مكتب المستشار دولفوس ثم من بعده ، شوشنج وقد علمت فيما بعد سويلالاسف بعد فوات الأوان — أنه كان من بينهم جاسوس فى مكتبنا الصغير أيضا ، كان مستخدما صغيرا ألحقناه بالعمل بناء على توصية قسيس ، فعلنا ذلك من أجل أن يبقى الظن بأن مكتبنا لا يشغل بشيء إلا بالمحاماه ، ثم لم نعهد لهذا المستخدم الا بعمل السعاة كالخروج لاتجاز بعض المطالب الهيئة والرد

لاعب الشطرنج . ٥٠

على السليفون وربيب أوراق لبست بذات خطر ، لم يكن من شأنه أن يفتح البريد وكنت أتكفل أنا نفسي بالدق على الآلة الكاتبة لتحريـر الرسائل دون أن أترك منها صورة في المكتب ، وأحمل معي إلى البيت كافة الوثائق الهامة ، ولا أقابل الموكلين إلا في الكنيسة أو بيت عمي . لم يبق للجاسوس شيء يتصيد في المكتب ، ولكن شاء القدر السبى أن ينبه هذا المستخدم أنه موضع رغبة وأن العمل يجري من وراء ظهره ، لعل أحد رجالنا قد زل لسانه في غيبي ، وتحدث عن الإمبراطور ذاكر اسمـه دون أن يلغز فيسميه « البارون برن » كما هو اتفاقنا ، أو لعل الجاسوس فتح البريد غير آبه بأوامرنا على كل حال بدأت سلطات برلين وميونخ نراقبنا عن كثب ، قبل أن نساورنى أقل رغبة في انكشاف سرنا ، لم أتذكر إلا بعد أن مضى زمن طويل ، وبعد أن قبض على ، كيف أن الجاسوس بدأ أيامه الأخيرة بمكتبنا يبدى مزيدا من الهمة والنشاط ، لا ينقطع الحاحه في أن يتولى عنى وضع الرسائل في صندوق البريد .

لا أنكر أنني انخدعت به ، ولكن كم من دبلوماسى وكم من ضابط راح ضحية انخداعه بهذا الصنف اللثيم . وأخيرا أتيج لى أن أظفر بدليل ماضى على أن الجستابو كان يلاحقنا بتتبعه لنا منذ زمن طويل ، ففى الليلة التى قدم فيها المستشار شرشنيج استقالته ، ليطلع الصباح من بعدها على دخول هيتلر إلى فينا ، جاء نفر من الحرس والقوا القبض على ، وكنت لحسن الحظ حين سمعت خطاب الوداع الذى أذاعه شرشنيج ، قد أسرعت بإحراق كل الأوراق الهامة ، وكنت قد نجحت في أن أسبق بدقة واحدة طرق حرس النازى على الباب ، وجمعت كل الوثائق التى تثبت وجود أموال

لاعب الشطرنج ٥١

خارج حدود النمسا ، بعضها يملكه الدبر الذى ينمى اليه وبعضها يملكه انثان من أسرة الامبراطور ، وخبأت هذه الوثائق فى سلة ملابس حملتها مريسي العجوز الامينة لسلما الى عمى .

قطع السيد « ب » حديه ليثعل سبجارة ، فأثار لهيب النقاب فمه ، فرأيت من جديد فعل عادة له كنت قد لحظته من قبل بدهشة ، وهو النواء طرف فمه كلما هاجت أعصابه ، انه النواء خاطف لا تكاد نراه العين ، ولكنه يضى على وجهه كله مسحة من قلق عجيب . ثم أردف يقول : —

نحسبني الان ولا ريب سأروى قصه أخرى من قصص معسكرات الاعتقال ، وإن أطنب فى وصف ما لحقته من تعذيب واذلال ، كلا . لم يحدث لى شىء من هذا ، اذ انهم سلكونى فى زمره أخرى ، زمره من طمع الحزب النازى فى انتزاع أسرارهم لا فى الانتقام منهم ، فما كان لشخصى الضعيف قيمة فى نظرهم — هم يريدون أن ينتزعوا منى أسراراً تنفعهم فى محاربة خصومهم . لم يزوجوا بزمرينا فى سجن أو معسكر اعتقال ، بل كانت موضع تكريم . فقد أنزلوا كل واحد من أفرادها فى حجرة خاصة فى فندق ، هو فندق مسروبول الذى اتخذة الجسنابو مقراً رئيسياً لهم . ونلت أنا أيضاً — وأنا شخص مغمور — هذا الشرف العظيم .

حجرة خاصة فى فندق ! هل يأتى لى أن أحلم بمعاملة أفضل من هذا ؟ ولكنها كانت أشد مكرًا وقسوة طريقتهم فى اسكاننا حجرات خاصة تنعم بالدفع ، بدلا من الزج بنا فى معسكرات مكتظة نعانى الصقع ، أنهم بذلك قد أسلمونا لوحدة مطبقة ، لم يفعلوا بنا شئاً ، بل اكفوا بتركنا والعدم وجهها لوجه ، ومن المعلوم أن لا شىء

لاعب الشطرنج ٥٢

يكرب النفس مثل الوحدة . فضرب نطاق من الفراغ حولنا ووضعنا في حجرة لا صلة بينها وبين العالم الخارجى هو أقوى فعلا في فتح أفواها من تعذيبنا بصقيع معسكرات الاعتقال .

لم أجد أول الأمر في حجرتي شيئا يفسد راحتى ، كان لها باب وبها فرائش وكرسى وحوض صغير ونافذة اشتبك عليها سياج من حديد ، ولكن الباب ظل مغلقا ليلا ونهارا ، كان محرما على أن أحصل على كتاب أو صحيفة أو ورق أو قلم ، وكانت النافذة تطل على جدار عال مواجه لها .

لم أجد حوالى الا فراغا أنا غارق فيه ، وكانوا قد أخذوا ساعتى حتى لا أعرف مرور الوقت ، وأخذوا قلما حتى لا أكتب شيئا ، وأخذوا مبرأتى حتى لا أستزف بها دمي ، وكان محرما على أن أجد متعة هينة في تدخين سيجارة ، لا أرى أبدا وجه انسان الا وجه الحارس ، وكان مأمورا أن لا يوجه الى الحديث وأن لا يجيب اذا سألته ، كنت لأسمع قط صوت انسان .

هذا الوضع الذى حرم الحواس غذاءها طول الليل والنهار خلفنى وحيدا يائسا ، منفردا أمام نفسى وأمام أربعة أو خمسة أشياء جامدة : المنضدة ، الفرائش ، النافذة . الحوض . كنت أعيش كالغاطسين في البحر داخل وعاء وسط خضم من الصمت العميق ، ولكن الفرق بينى وبينهم أن الحبل الذى يربطنا بالعالم الخارجى كان قد انقطع عندي ، ولم يبق لى أمل في الخروج من غياهب الصمت العميق ، لم يكن هناك شيء أقعله أو أسمعه أو أنظره ، ليس من حولى الا فراغ مدوح ، فراغ لا حدود له في الزمان والمكان .

لاعب الشطرنج ٥٢

أخذت أذرع الحجرة جيئة وذهابا والأفكار تذرع
رأسي جيئة وذهابا بلا هوادة ، وعلى نمط واحد
لا بغير .

ولكن الفكر حين يحرم من مدد خارجي يظل يطلب
نقطة ارتكاز له والا دار حول ذاته دورانا جنونيا ، لأن
الفكر لا يتحمل الفراغ هو أيضا ينتظر من الصباح للمساء
ان يحدث شيء فلا يحدث شيء ينتظر من جديد ثم ينتظر
وبينظر ، والأفكار تدور ، ويدور في رأسه ، الى ان تلتهب
اصداغه ، لا يحدث شيء ، ويبقى وحيدا وحيدا وحيدا .

دام حالي على هذا المنوال خمسة عشر يوما ، عشت
خلالها خارج الزمن وخارج الدنيا ، لو أندلعت حرب
لما عرفت بخبرها ، الوجود كله عندي لا يزيد عن
منضدة وباب وفراش وكرسی وحوض ونافذة ، وأربعة
جدران يثبت على ورقها نظري ، كل خط في نقشة قد
حفر في عقلي من طول خبرتي به وتأملتي له .

وأخيرا بدأ التحقيق ، كنا عرضة للاستدعاء فجأة
لا ندري متى ؟ أبالليل أم بالنهار ؟ يقاد بنا عبر دهاليز
لا نعرف أين تؤدي ، ثم ننتظر في مكان ما ، ثم نجد
انفسنا فجأة أمام منضدة يجلس حولها نفر من الرجال
في زي رسمي ، وعلى المنضدة كوم من الأوراق — داخل
ملفات لا نعرف محتوياتها ، ثم هذه الأسئلة الصريحة
تتلوها أسئلة مأكرة نخفي وراءها أغراضا أخرى ،
أسئلة ننصب لك الشرك ، واذا نحن نجيب على هذه
الأسئلة بمد يد غريبة نم عن العداء لنا ، وتقلب
الأوراق التي نهمل محتوياتها ، ويجري قلم يضمم لنا
الشئ بخط أسطر في محضر التحقيق فلا تعلم ماذا كتب .

ولكن أكثر شيء أزعجني في هذا التحقيق كان عجزى

لاعب الشطرنج ٥٤

عن نخمين مدى ما يعرفه الجسنايو عن اعمالى بفنسل
جاسوسهم ، واى شىء بقى يريدون معرفته منى ،
وكنت كما قلت لك قد أفلحت قبل القبض على بدقيقة
واحدة فى ان أرسل الى عمى مع مربيتى كل الوثائق
ذات الخطر . كنت أسأل نفسى هل با ترى حملتها
البها ؟ ما مدى علم المستخدم الجاسوس بأسرارى
وفضحه لها ؟ هل وضعوا يدهم على رسائل لى ؟ هل
ظفروا بشىء من فم قسيس مسكين جرى التحقيق معه
بمهارة فى دير ندير املاكه ؟

وانهالت على الأسئلة : ما هى الاسهم والسندات
النى اشتريتها لهذا الدير ؟ مع اى بنك اتعامل ؟
هل اعرف فلانا أو فلانا ؟ هل تصلنى خطابات من
سويسرا ؟ واذا كنت لا اعرف حق المعرفة مدى سابق
علمهم بأسرارى فقد زلزلنى ادراكى ان كل اجابة منى
قد تتعلق بها مسئولية جسيمة ، فلو نطقت بشىء لم
يصل الى علمهم اكون بذلك باعنا بانسان الى القبر ،
واذا غلوت فى أطباق فمى اضررت بنفسى .

لم يكن أسوأ ما لقيته هو التحقيق معى ، بل العودة
الى العدم ، الى الحجرة ذاتها ، والمنضدة ذاتها ، الى
الفراش بعينه ، الى ورق الجدران بعينه .

وكنت لا اكاد أعود الى خلوتى بأفكارى حتى أستعيد
فى ذهنى مجرى التحقيق ، أفكر فى أحسن اجابة فانتنى
وكان ينبغى أن أرد بها ، وكيف ينبغى أن أجيب فى المرة
القادمة لاسنبعد الشك الذى انترته من قبل بعبارة ندت
عن فمى بغير أناة أو تدبر .

كنت أغوص وأغوص الى الأعماق ، وامتحن كل
اجابة لى سابقة ، وأعيد فى ذهنى كل سؤال وكل
رد ، وأحاول أن أقدر ماذا يمكن أن يكون قد سجله

لاعب الشطرنج ٥٥

محضر التحقيق ، وأنا عليم حق العلم ان هذا التقدير محال .

ما نكاد هذه الأفكار تنبعث في رأسي حتى نظل ندور فيه وتدور ، نشابك على نحو آخر دون بوقف ، للاحقني هذه الأفكار حتى في نومي .

وهكذا كان لا مفر — بعد أن ينتهي التحقيق — من أن يطيل فكري عذابه بقسوة يفوق قسوة القضاة ، جلسة التحقيق عندهم نهايتها بعد ساعة من عقدها ، أما وحدني في الحجرة فلا من على عذابي بنهاية ، ليس من حولي الا النضده والفراش وورق الجدران والنافذة ، كل وسائل السلية معدومة : لا كتاب ، لا صحيفة ، لا وجه الا وجهي لا قلم بسح لي ان أسجل به خاطرا جال في ذهني واريد ان لا أنساه ، بل لأعود نقاب الهو باشتعاله واطفائه ، لا شيء ... لا شيء ... لا شيء ...

ليس الا شيطان عبقرى قاتل للروح يهدي في السعذب الى وسيلة الخلوة داخل حجره فندق ، لو كنت في معسكر اعتقال لعملت ولا ريب في نقل الأحجار حتى تدمي يداي ، ويجمد البرد قدمي داخل الحذاء ، ولحسرت مع خمسة وعشرين رجلا في قبضة الصقيع والعفونة ، ولكني كنت مع ذلك سأرى وجوه بشر وأنامل حقا ، وعربة نقل يدويه صغيره ، كنت سأنظر الى شجرة ، الى نجم ، سأنظر — أخيرا — الى شيء جديد بدلا من هذه الحجرة النى لا يطرأ عليها طارئ ، فظليعة في نباتها المستقر وشبهها الواحد الذي لا يتغير ، ليس فيها شيء واحد بسنطيع أن يجذب اليه نظري وينقذني من افكاري وخيالي المجنون واجزاري المريض ، هذا هو عين ما يقصده جلادى ، أن نطبق على الأفكار

لامب الشطرنج ٥٦

حتى تخفنتنى ، بحيث لا يبقى لى الا أن أفضها لفظ
البصاقى — كما يقال — وأعترف ، أعترف لهم بكل
شئ . أفصح أصدقائى وأدلى للقضاة بما يريدون علمه .
أحسست بسبب هذا الارهاق الخيف أن قوة احتمال
أعصابى قد تراخت ، وحشدت بجزم أقصى قواى للبحث
عن مخرج .

أخذت — من قبيل خلق شغلة تلهينى — أتلو بصوت
مرتفع ما كنت أحفظه من قبل عن ظهر قلب ، مرددا
النص كما تسعفنى به ذاكرتى ولو خرج مضطربا ، أتلو
قائد غنائية شعبية ، وانشيد أطفال ، وفقرات من
هوميـر حفظتها فى المدرسة ، ونص مواد فى القانون
المدنى . ثم أخذت أحاول فرض مسائل حسابية لأصل
الى حلها ، وأخار خبط عشواء أرقاما ما ، وأظـل أخلط
بينها بالجمع والطرح والقسمة ، ولكن وجدت قدرتى
على التفكير فى خلاء حجرى مصابة بالشلل ، ولم أستطع
أن أركز ذهنى فى شئ اذ يستولى عليه من جديد بفكرة
واحدة تلاحقنى بالحاح هى : ماذا يعلمون ؟ ماذا قلت
بالأمس ؟ ماذا ينبغى أن أقوله فى المرة القادمة .

عشت فى هذا الجو الذى لا يحيط به وصف مدى
أربعة أشهر ، أربعة أشهر : كلمتان ما أقصر عمرها
نطقا وكباة ، لا يسغرق النطق بهما الا أقل من ربع
ثانية . ولا نطلب كتابتها من الحروف الا النزر اليسير ،
ولكن كيف يأتى لانسان أن يعبر — حتى لنفسه وحده —
بالنطق أو الكتابة عن حياة تمضى أربعة أشهر خارج
معايير الزمان والمكان ؟ لن يفلح أحد أبدا فى التعبير
عن هذا الخلاء المطبق كيف يبلى ويحطم ، ولا وقع
منظر هذه المنصدة الأدبية وهذا الفرائى ، هذا الحوض
الابدى وهذا الورق على الجدران ، ما وقع هذا الصمت

لاعب الشطرنج ٥٧

المطبق الذى قسرت عليه ؟ ما وقع مسلك الجندي الحارس وهو واحد لا يغير ؟ كل ما يفعله أن يقدم الطعام للسجين دون أن يلقي عليه نظرة واحدة ، أفكار هى دائما واحدة لا تتغير ، تدور فى الفراغ حول رأس من انفرد بنفسه الى أن يصاب بالجنون .

دلننى علامات هيئة انزعجت لها أن عقلى قد بدأ يختل ، كنت فى مبدأ الأمر أحتفظ بوضوح ذهنى اذا مثلت أمام القضاة ، وادلى بأقوالى بهدوء وبدبر . وافرقت بنجاح فى ذهنى بين ما ينبغى وما لا ينبغى قوله ، أما الآن فأصبحت لا أقوى على النطق بعبارة ولو موجزة دون أن اتلعثم ، إذ أظلم وأنا أنطقها أثبت نظرنى كالخاضع للنويم المغناطيسى على قلم كاتب الجلسة وهو يجرى على الورق، كأنما أود أن أجرى فى اثره والأحق كلمانى . أحسست أن قوبى قد ضعفت واقتربت الساعة التى أدلى فيها — طلبا للنجاة — بكل ما أعلم ، بل بأزيد مما أعلم ، أفضى بأسرار أصدقائى وأفضحهم ، ولو لم يكن جزائى الأبرهة عابرة من الراحة .

وذات مساء وأنا فى حجرى دخل على الحارس ليقدّم لى الطعام ، فإذا بى وهو يهم بالانصراف أصرخ اليه بصوت مخنق :

— خذنى الى القضاة ، سأعترف بكل شيء ، سأقول لهم أين هى الوثائق وأين هى الأموال ، سأقول لهم كل شيء ، كل شيء .

من حسن الحظ أنه لم يستمع لكلامى ، أو لعله أعرض عن سماعه .

كنت قد بلغت حافة الهاوية ، فإذا بحادثة تقع على غير انتظار ، رجوت أن يكون قبها خلاص نفسى ولو لزمان ما ، كانت حجرى قد شملتها عتمة غروب قائم

لاعب الشطرنج ٥٨

لبوم من أواخر أيام شهر يوليو ، انى أذكر بوضوح زمن الحادثة لأنه مرتبط في ذهنى برؤيتى المطر وهو ينهمر على زجاج نوافذ الدهليز وأنا مقود للتحقيق ، أشير الى أن أبقي فى حجرة الانتظار ، اذ كان من بين قواعد الخطة أن انتظر ، يمضى على وقت وأنا فى انتظار الدخول الى القضاة . وتبدأ خطة زلزلة أعصاب المتهم بايقاظه فجأة فى عز الليل ، فاذا نمالك جأشه وثشد عزمه استعدادا للتحقيق أبقوه بنظر ، ينظر بلا طائل ساعة وساعتين وثلاث ساعات من قبل بدء التحقيق ، كل هذا من أجل أن يسلم وهو صاغر قياد جسمه وروحه .

بقيت واقفا فى حجرة الانتظار لا اقل من ساعتين كاملتين ، حدث هذا يوم الخميس ٢٧ يوليو ، سأقول لك لماذا بقيت أذكر على وجه التحديد تاريخ ذلك اليوم : وجدت أمامى « تقويها » معلقا على الجدار ، لم آبه للخدر الذى دب فى ساقي وفى جذعى من طول وقفى — اذ كان الجلوس محرما على — وأخذت بدافع من التعطش للقراءة النهم بعينى رسم تاريخ اليوم على النقوبم بحروفه وأرقامه — ما هى الا عبارة صغيرة لا تزيد عن « ٢٧ يوليو » ، ثم عدت الى الانتظار ، الى مراقبة الباب ، أسأل نفسى : ترى متى يفتح ؟ أفكر فى تخمين الأسئلة التى توجه الى هذه المرة وأنا عالم أن أسئلهم سنختلف عما أظنه .

وبالرغم من قلق الانتظار — كنت أحس بشيء من الراحة لانتقالى من حجرة الى حجرة أخرى . . هى أكثر انساعا ، نثيرها نافذتان ، ليس بها فراش ولا حوض ، ليس فى جدرانها شقوق مثل تلك التى رأيته

لاعب السطرنج ٥٩

أكثر من ألف مرة في حجرى ، ولون الطلاء أيضا مختلف ، والكبرى أمامى غير كرسى حجرى ، على يسار الباب خزانة ملأى بالملفات ، ومشجب معلق عليه ثلاثة أو أربعة معاطف عسكرية مبللة بالماء هى معاطف جلادى .

هكذا انيح لى أن أرى أشياء جديدة — أخرا وجدت شيئا جديدا ، والبهمنها نظرنى بنهم وهى تنشبت بها ، أخذت أأمل كل بنيه فى قماش المعطف ، وأنبه مثلا لنقطة مطر مستقره على ياقبه المبنلة ، وتملكنى شغف يبدو لك سخيفا : أن أظل أرقبها بلهف لأرى هل تنزلق عن مكانها أم تظل عالقة به ، بقيت أرقبها وأنا ألث فتره من الزمن كأنما حبابى معلقة بها ، فلما رايتها تسقط انتقلت الى عد الأضرار على كل معطف ، نهائيه على الأول والناتى وعشرة على الثالث ، ثم أخذت أقرن بين شاراتها . كانت نظرنى تنهل من هذه الأشياء الهينة ورنوى وبلذذ بشغف لا يستطيع الكلمات التعبير عنه . ثم دقت نظرتى فجأة على شيء مختلف ، شيء انتفخ به جيب معطف فاقتربت وظننت أننى أنين تحت القماش المشدود شكلا مستطيلا بوحى بأنه كتاب ، كتاب . . ارنعشت ركبته . كتاب . كان قد مضى على أربعة أشهر لم أتناول خلالها فى يدي كتابا ، فبهرنى مجرد تصور وجود كتاب فى جيب المعطف ، كتاب أظفر فيه برؤية الكلمات المصطفة ، والصفحات ، والأوراق أقلبها كما أشاء ، كتاب يتيح أن أطلع فيه على أفكار رجل آخر ، أفكار جديدة ، عليها تشغلنى عن أفكارى ، وأستطيع أن احتفظ بها فى ذاكرتى ، يالها من لقبة مئة مسعده معا وكان نظرتى جذبها سحر مغناطيسى فتسمرت على الجيب المنتفخ الذى بان بداخله شكل

لاعب الشطرنج ٦٠

كتاب ، وانتقدت نظرتي كأنما تريد أن تحدث ثقباً في جيب المعطف فلم أتمسك نفسي وتقدمت خطوة ، سرت النار في أصابعي لجرد التفكير في اننى سألمس كتاباً ولو من تحت غطاء ، وإذا بى أجد نفسي وأنا لا أشعر أتقدم خطوة أخرى .

لم ينتبه الحراس لحسن الحظ الى غرابة مسلكي ، لعلمهم رأوا من الطبيعى أن يعتمد رجل ظل واقفا مدى ساعتين الى الاستناد الى جدار الحجرة .

نجحت في الاقتراب من المعطف ووضعت يدي خلف ظهرى لالمس بها الجيب خلسة ، ودلننى جسى له أن بداخله جسماً مستطيلاً غير جامد يسمع له عند الضغط عليه حسيس خافت ، كتاب . أى نعم كتاب ولا ريب . ولعلت في ذهني فكرة كالبرق ، حاول أن تسرقه ولعلك تنجح فتخبئه في جبرتك وتقرأه ثم تقرأه ، انك واجد أخيراً شيئاً جديداً .

لم تكد هذه الفكرة تخطر ببالي حتى سرت في كياني كالسم الزعاف ، أخذت أذنأى تطنان ، وقلبي يخفق ويدأى المتلجتان مشلولتان .

ولما انقضت بؤادر دهشتي أخذت التصق بالمشجب بحركة محتالة مأكرة ، وأنا لا أرفع نظري عن الحارس ، ورفعت الكتاب شيئاً فشيئاً خارج الجيب ، ها هو ذا ينفلت أطبقت عليه يدي فإذا هو كتاب صغير قليل الصفحات ، حينئذ تملكى الخوف مما فعلت وتمنيت أن لا أكون قد فعلت ، ولكنى كنت حينئذ قد أصبحت عاجزاً عن التراجع واصلاح زلتى ، سعيت — مبقيا يدي وراء ظهرى — حتى أفلحت في دس الكتاب في سروالى من تحت الحزام ، وأخذت أدفعه برفق حتى استقر على قمة فخذي ، وضع يتيح لى أن أضغط على الكتاب

لاعب الشطرنج ٦١

بيدى حين الصقها بزيق سروالى كما تلزمنى مشيتى
العسكرية المفروضة على .

اصبح امامى الآن ان اعرف مقدار نجاح هذه الحيلة ،
فابتعدت عن المسجب ومشيت خطوة وخطوتين وثلاثة
نجحت حيلتى. ولم يسقط الكتاب ما دمت لاصمقا يدي
عائى زيق سروالى ناحية الحزام .

ثم بدأ التحقيق معى ، فاقترضانى جهدا يفوق كل
جهد سابق ، لأن كل اهتمامى لم يكن منصرفا الى
التحقيق ، بل مركزا على الكتاب وعلى حيلتى فى
امساكه داخل سروالى .

ومن حسن الحظ ان جلسة التحقيق كانت قصيرة
ذلك اليوم وعدت الى حجرتى بالكتاب سالما غانما ،
لا أحب ان اطيل عليك بذكر ما حدث بالتفصيل ، يكفى
ان تعلم ان الكتاب انزلق من موضعه وانا اسير فى
الدھليز ، وكان لابد لى ن ازعج سعالا طارئا قد استبد
بى وقوس ظهري . زعمت هذا من اجل ان اميل على
ركبتى وازحزح الكتاب خلصة لاعيده الى سابق مكانه ،
ولكن هيهات لى ان انسى تلك اللحظة التى عدت فيها
الى حجرنى فأجدنى وحيدا — ومع ذلك فى رفقة لا تقدر
بهمن .

اننت تحسب ولا ريب اننى سارعت حينئذ الى اخراج
الكتات من مخبئه لأتصفحه واقراه . « كلا » لم أفعل
شئبا من ذلك ، ان مجرد وجود هذا الكتاب معى فرحة
غمرت قلبى فأردت أولا ان استمتع بها الى أقصى مداها،
وأخرت عمدا لحظة تصفحى للكتاب لأسبج فى أحلام
لذيذة تطوف بمضمونه .

تمنيت بادىء الأمر ان تكون حروفه دقيقة جدا
وصفحاته ملأى بالأسطر والكلمات مطبوعة على ورق

لاعب الشطرنج ٦٢

رقيق حتى أظفر بقدر كبير أقراه . ومهنت أيضا ان يكون
 كتابا يعالج موضوعا عويصا ببطلب لفهمه جهدا عقليا
 كبيرا ، أو موضوعا يلذ حفظه عن ظهر قلب ، ديوان
 شعر مثلا . وجبذا لو كان — بالشطط أحلامي — ديوان
 جوته أو الياذة هوميرو وأخيرا غلبني فرط لهفتي وهياج
 ارتقابي ، فرقدت على الفراش في وضع بخفي حركة
 يدي بحيث لا أنير انبياه الحارس اذا دخل على فجأه ،
 وأخرجت الكاب بيد مرعشة من تحت الحزام .

ما كدت ألقى اليه نظرة حتى صرعتني الحسرة وخيبة الأمل ، هذا الكتاب الذى جازفت باختلاسه أعظم المجازفة ، معرضا نفسى لاقطع الأخطار ، والذى الهب رأسى ورفع أحلامى الى عنان السماء ، لم يكن الا كناية عن لعبة الشطرنج . ولو كنت غير حبيس فى حجرة مغلقة لطوحت بهذا الكتاب فى غيظ شديد ، وألقيت به من النافذة ، فما انتفاعى بمثل هذا الكتاب ؟ قد سبق لى وأنا فى المدرسة الثانوية — شأن بقية زملائى — ان لهوت فى يوم غلبنى فيه الملل بنحريك قطع الشطرنج فوق الرقعة ، فكيف أنتفع بكتاب لا يتضمن الا دراسة نظرية لهذه اللعبة ، وكيف يتسنى اللعب دون شريك بل دون رقعة الشطرنج وقطعه .

وأخذت أنصفح الكتاب وأنا ضائق الصدر آملا أن أجد فيه على الأقل سطورا تقرأ ولو كانت قليلة ، مقدمة فى أوله أو تنبيهات الى القارئ . ولكنى لم أجد فيه الا رسوما لادوار شهيرة ، تحتها رموز لم أفهمها أول الأمر ، ب ، ج ، هـ ، هـ . كانت بمثابة رموز جفر لا أملك مفتاحه .

وقليلا قليلا فهمت أن الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، الخ الخ تشير الى المربعات الرأسية وأن الحروف ا ، ب ، ج ، د ، الخ الخ تشير الى المربعات الأفقية وباقتران الرمزين يمكن تحديد موضع القطعة وكلما تحركت من مربع الى مربع ، هذه الرموز هى بمنابها لغة خاصة .

فقلت لنفسى لعلك تستطيع أن تتخذ من شئ فى حجرتك بيديا للرقعة ثم تحاول أن تلعب هذه الأدوار الوارد ذكرها فى الكتاب ، وانتبهت الى أن فرائش

لاعب الشطرنج ٦٤

غطائي مرسوم لحسن الحظ على هيئة مربعات فاذا طبقته بعناية صح ان يكون رقعة شطرنج من ٦٤ مربعا خبات الكتاب نحت الحثية بعد ان مزقت أول أوراقه ثم نزعنا من الخبز الذي يصرف لى لبابته وعجنت منها اشكالا على هيئة قطع الشطرنج كلها ، لم تكن مشابهتها للاصل تامة ، ولكنى نجحت بعد مشقة كبيرة أن اضعها على غطاء فراشى وأحركها طبقا لنص الكتاب .

ومع ذلك حين حاولت أن أتم الدور وجدنى عاجزا عن المضي فيه الى النهاية ، لأنى كنت أخلط بين هذه الأشكال المضحكة التى انخذها من لبابة الخبز ، ذلك أننى لم أستطع أن أفرز منها نصيب اللون الأسود الا بفضل علامة هيئة التمسها من غبار حجرتى ، فاضطرت أن أعيد الدور من أوله عشرا وعشرين وثلاثين مرة ، ومن ذا الذى يملك من الوقت أكثر مما أملك ؟ ومن ذا الذى يقدر على أن يفوقنى فى اللففة والصبر معا ؟

وبعد ستة أيام نجحت فى أن أتم الدور . ثم بعد ثمانية أيام لم أعد فى حاجة الى هذه الأشكال المضحكة لأحدد مواضع القطع وهى ننتقل حركة بعد حركة الى أن ينم الدور ، وبعد أسبوع استغنيت أيضا عن غطاء فراشى . ذلك انى حين بدأت أقرأ رموز الكتاب ب ١ ج ٢ ، ه ٨ الخ الخ كنت أدرك دلالتها ولكنى أعجز عن تصورها لأنها ليست من واقع محسوس ، ثم أصبحت أكنى بنصورها فى مجال الخيال وحده ونم اقتتال احتياح البصور من الواقع الى الذهن وحده ، فترنسم الرقعة فى ذهنى ، وكذلك القطع أيضا ، بل سنحرك طبقا لأوامر الكتاب فى ذهنى أيضا ، أصبحت كالموسيقى الجرب تكفيه نظرة واحدة الى التوتة حتى

لاعب الشطرنج ٦٥

يسمع من فوره اللحن الأساسى وما يصاحبه من انغام هارمونية .

وبعد تدريب استمر خمسة عشر يوما استطعت ان أرسم فى ذهنى سر كل الأدوار — الواردة فى الكتاب وأدركت حينئذ أى نعمة جلييلة خلقتها على سرتى له ، أصبحت أملك وسيلة لأعمال الفكر ، وسيلة لانهرة لها قد تقول هذا ، ولكنها مع ذلك تحررنى من أسر العدم . فقد أصبحت أمتلك بفضل هذه الأدوار المائة والخمسين سلاحا ماضيا ينقذنى من رتابة الزمان والمكان .

ولكى أحفظ بطرافة شغلتنى الجديدة ، قررت أن أضع نظاما ما أقسم به يومى قسمين ، دوران العبهما فى الصباح ودوران فى العصر ، ثم إعادة سريعة بالليل للدوار الأربعة . هكذا نظمت وملات فراغه بدل أن أنرك نفسى عائنا لا تقودنى الا نزواتى ، ولم أحس بارهاق ، لأن لعبة الشطرنج تختص بميزة عجيبة هى أنها لا تتعب الذهن ، بل بالعكس تجدد صفاء ونشاطه . ذلك أن اللاعب يركز كل قواه الذهنية فى حيز محدود ، حتى لو كانت مشكلته عويصة .

وكننت أول الأمر أنقل القطع وكان الكتاب هو الذى يحرك يدى ولكنى بعد ذلك بدأت أنتبه الى الفكر المسير لهذه الحركات ووجدت فى اننهاى هذا لذة كبيرة ، وأدركت ما فيه من نكاء وحيلة لطيفة فى الدفاع والهجوم . ووجدت فى نجيع القطع بترتيب معين فنا وأصولا نفذت الى أسرارها ، بل استطعت بعد قليل أن أتبين خصائص أسلوب كل لاعب شهير ، كما يتبين الذواقة الخبير وهو يتلو أبياتا قليلة من الشعر أى شاعر نظمها .

هذه اللعبة التى لم أجد فيها أول الأمر الا وسيلة لقتل الوقت أصبحت عندى متعة ذهنية لذبة ، ووجدتنى

لامب الشطرنج ٦٦

في صحبة جميلة تنفذني من وحدتي ، وأنا اعاشر بذهني
أئمة الشطرنج من أمثال اليكين ولاسكار وبوجولجوبوف
وتاتاركوير .

اكتسحت تيارات من التجدد ما في حجرتي من ركود
صامت ، وعاد لذهني اطمئنانه بفضل سلامة المنطق في
هذه التمرينات التي شغلتنى ، بل ان التزام هذا المنطق
بحدود واضحة لا يخرج أبدا عنها أضفى على ذهني
صفاء جديدا سرعان ما ظهر في التحقيق . فقد دربتني
رقعة الشطرنج — وأنا لا أدري — على احكام خطتي في
التحقيق وتقادى كل مخ ومكر ، وأصبحت قواى
لا تتضعض أمام القضاة ، وخيل الى أنهم بدأوا ينظرون
الى باحترام ، لعلمهم بنادلوا العجب فيما بينهم ، وحاروا
في تعليل سبب ثباتي بصلابة على حين يتحطم الآخرون
بين أيديهم .

طالت ثلاثة أشهر تقريبا هذه الفترة السعيدة في
حياتي ، حين كنت لعب هذه الأدوار المائة والخمسين
التي وجدتتها في الكتاب ، ثم فرغت جعبتي ووجدت نفسي
من جديد في قبضة العدم ، فان لعب الدور الواحد
عشرين أو ثلاثين مرة يفقده طرافته ويستنفد سحره .

فما جدوى اللعب اذا كنت أحفظ من قبل عن ظهر
قلب كل حركة ، الحركة الأولى تعقبها الحركة الثانية
على التو ، هو عمل آلى ، لا يمدنى بمفاجأة أو مشكلة
عويصة أعمل لحظها ذهني .

وكان غير متاح لى أن أجدد هذه المتعة التي أصبحت
لا أستغنى عنها الا اذا عثرت على كتاب جديد في
الشطرنج ، يتقدم بى خطوة أخرى ، ولم يبق لى من
مخرج الا أن أخترع أدوارا أخرى حاولت أن لعبها بينى
وبين نفسي ، أو أن شئت ضد نفسي .

لاعب الشطرنج ٦٧

لا أدري اذا كنت أنت قد فكرت من قبل في أثر الشطرنج — ملك الالعاب — على من يمارسه وكيف يجد نفسه أسير مزاج فريد ، انه لعبة لا دخل للحظ فيها ، كل سحرها كامن في مسألة واحدة : هى النزال بين ذهنين ، كل منهما له خطته المضمرة وأسلوبه ، ان هذه المعارك العقلية تنجم من أن صاحب اللون الاسود لا يعرف خطة صاحب اللون الأبيض ، فيحاول كل منهما أن يحرز مرمى غريمه ليفسده عليه .

فاذا كان الغريمان هما شخص واحد فانه سيجد نفسه في تناقض : كيف يجمع بين اتخاذ دور اللاعب صاحب الدور الأبيض ويرسم خطته ويستر هدفه ، وبين اتخاذه دور صاحب اللون الاسود ويمزعم لنفسه أنه ينسى أو يتجاهل سبل علمه بخطة غريمه ، حتى لا تتأثر خطته بسابق علمه هذا ؟ . ان هذا الازدواج في الفكر يتطلب ازدواجا فيه انفصال تام بين وعى ووعى ، وهذا يدل على أن الإرادة قادرة على حجز ملكات العقل بعضها عن بعض ، كما تفصل في الآلة بعض أجزائها عن بعض .

وحملنى اليأس على أن أسلم نفسى لهذا العبث عدة أسابيع ، اذ كانت ظروف معيشتى تفرض على هذا الازدواج في ذهنى بين نفسى وأنا العب باللون الأبيض ، وبين نفسى وأنا العب باللون الاسود . لا نجاة لى الا بهذا أن أرحت أن لا يحطمنى العدم المخيف الذى يحيق بى من كل جانب .

مال السيد « ب » الى الوراء وأسند رأسه الى الأريكة ، ثم اغمض عينيه لحظة ، وخيل الى أنه يحاول اقضاء ذكريات مزعجة ، وغلبته عادته التى استوقفت

لاعب الشطرنج ٦٨

نظري ودهشت لها من قبل ، فالتوى طرف فمه دلالة على هزة أعصابه ، ثم اعتدل محدثى واستطرد :

أظن أن حكايتي الى الان قد بدت لك واضحة ، ولا أدري اذا كان هذا سيكون حالها فيما بقى منها . ان شغلنى الجديدة كانت تفرض على توترا ذهنيا شديدا ، أصبح من المحال معه أن أملك قياد نفسى ، لعلنى كنت أجد مخرجا من مأزقى — وان يكن ضئيلا — اذا أتيتح لى أن أجلس الى رقعة تلمسها يدى ، بحيث يتأتى لى أن اتحول من عالم الخيال الى عالم الواقع — أمام رقعة وقطع شطرنج أحركها فتترجم سير أفكارى ويتاح لى التنقل بجسمى من طرف المنضدة الى طرفها المقابل ، وأحكم بذلك على سير اللعب تارة من وجهة نظر اللاعب باللون الأبيض وتارة من وجهة نظر اللاعب باللون الأسود .

ولكنى كنت مجبرا على أن أنازل خصما هو أنا ، أو أن شئت أنازل نفسا أنتزعها من نفسى وأفترض وجودها ، وكان هذا الازدواج يتطلب منى أن أرسم بذهنى صورة واضحة لتوالى الحركات وما يجده كل لاعب فرصة متاحة أمامه ، بل أن أرسم فى ذهنى أيضا — وقد يبدو لك هذا القول من قبيل الخرافة ست أو سبع حركات قادمة للاعب من أجل أن أرسم مثلها للاعب الآخر ، وما هذان اللاعبان إلا أنا .

أصبحت صاحب ذهنين منفصلين واحد أبيض والآخر أسود ، فبهذا وحده أستطيع أن ألعب بالخيال فى فراغ ، وأن أرسم فى الفراغ أيضا حركات كل خصم من الخصمين طبقا لخطته .

وكان أكبر خطر يتهددنى لا يكمن فحسب فى هذا الازدواج الذهنى داخل نفسى ، بل فى أن المعركة كلها

لاعب الشطرنج ٦٩

لا تجرى الا في عالم الخيال . كادت قدمي تنزلق فجأة
واتردى في هوة الجنون .

كنت من قبل — اذا أعدت دورا من الادوار الشهيرة
في الكتاب — لا أقوم بعمل يزيد عن نقل صورة عن اصل ،
لا يتطلب مني جهدا يفوق جهد بذكر قصيدة أو نص مادة في
حدود ضيقة ، داخل ذهن تربيته خاضعة لنظام وقواعد
شأن تربية التلميذ في المدرسة .

وداومت في غير لهفة واضطراب على لعب دورين
في الصباح ومثلها في المساء ، وأصبح اللعب شغلتني
المألوفة وكنت اذا هفوت أثناء اللعب أو ترددت طلبت
النسخ والعون من الكتاب .

وأذا كنت قد وجدت في هذه الشغلة نجاتي فانما يرجع
الفضل الى أنني كنت أنا نفسي غير نازل في الميدان ،
لا يهمني في شيء أن يكسب الأبيض أو الأسود ، انه
نزال بين لاعبين شهيدين يبتغي كل منهما الوصول الى
مرتبة البطولة ، أما لذتي أنا فهي لهذه المتفرج أو الخبير
الذي يراقب بمنعة سير المنازلة وبراعتها وجبالها .

وفي اللحظة التي أبدا فيها هذا اللعب المزدوج ، كنت
اعتبر بلا وعي مني أن المسألة ليست مسألة تسلية ،
بل مسألة تحد سافر ومضمر ، وأن هناك نزالا بين
اللون الأبيض الذي هو أنا ، وبين اللون الأسود الذي
هو أنا . كل منهما يريد الانتصار على الأخران ان رسم
ذهني للحركات القادمة للون الأبيض يلهم فكري وأنا
العب باللون الأسود ، كل خصم من الخصمين داخل
نفسي يجمع بين الفرح والضيق حين يرتكب الآخر
هفوة .

حياة لا معنى لها انها كانت كذلك لو أنها كانت لرجل
من سوية البشر ظروفه سوية أيضا ، انها حكاية

لأعب الشطرنج ٧٠

لا تصدق حكاية كيف تؤدي هذه الحالة الى فصام ذهني والى ازدواج في الشخصية عسير على الناس تصويره ، ولكن لا تنس أنني كنت رجلاً قد تم انتزاعه بقسوة وعنف من الجو الذي كان يعيش فيه واعتاده ، كنت سجيناً بريئاً ، تفرسه الوحدة بعذابها منذ ، أشهر ، رجلاً تراكم الغضب في قلبه دون أن يباح له صبه على شيء أو على رأس إنسان ، لم تكن أمامي من تسلية الا هذا اللعب السخيف مع نفسي ، وصببت فيه بعنف سخطي وتلهفي على الانتقام ، كان بداخلي رجل يريد أن يدافع عن حقوقه فلا يجد له منزلة الا مع هذا الخصم الذي يلاعبني وما هو الا أنا ، لذلك أثار في هذا اللعب هياجاً هو أشبه بالجنون ، كنت أستطيع في مبدأ الأمر أن ألعب بهدوء وأزيت بين الدورين لأستريح قليلاً ، ولكن سرعان ما أبت أعصابي المتوترة أن تسمح لي بالتريث ، فإذا لعبت باللون الأبيض ناداني اللون الأسود والحق على أن ألعب به ، وما يكاد الدور ينتهي حتى يهتز نصف نفسي رغبة في أن اتحدى النصف الآخر ، إذ كان بين جنبي دائماً لاعب خاسر يجار بطلب الانتقام .

لا أستطيع أن أحدد ولو على وجه التقريب عدد الأدوار التي لعبتها على هذا النحو وأنا متكالب لا أهدأ ، ربما لعبت ألف دور ، وربما أكثر ، كنت كمن تملكه شيطان لا خلاص منه ، ليس في رأسي طوال اليوم الا « كش الملك . مات الملك » ، وعيني لا ترى الا بياض وفيلة وقلاعا ، كل كيائي واحساسى مركزان على مربعات قطعة شطرنج .

كان أثر اللعب على أول الأمر هو الفرح ، ثم سرعان ما انقلب الفرح الى تلهف عنيف ، والتلهف الى انصياح الأسير ، ثم الى لونة وهوس فهاج جنوني يلفني بالليل

لاعب الشطرنج ٧١

والنهار . لا شيء يشغلنى الا الشطرنج ومسائله وقطعه ، اسنقظ أحيانا بالليل والعرق يتصبب من جبينى فأتبين أننى كنت وأنا نائم لم أنقطع عن اللعب ، وإذا رايت فى الحلم أناسا من البشر لا أجدهم يتحركون الا حركة الفرس أو الفيل أو القلعة .

واختلط على فكرى حين كنت أمثل أمام القضاة ، وخيل الى أننى لم أنطق فى الجلسات الأخيرة الا بكلام مبهم غامض ، بدليل أن القضاة تبادلوا النظرات فيما بينهم . هم ينبعون التحقيق ويتشاورون اما أنا ففكرى مشغول بشيء واحد هو انتظارى بدافع من هيام لا ينقطع نهمة لحظة أن أرجع لحجرتى لأعود الى اللعب الجنونى ، اللعب دورا ثم دورا .. كل معوق عن اللعب يغيظنى ولا أطيقه ، فأنمل اذا دخل الحارس حجرتى ليكنسها مع أنه لا يبقى بها أكثر من ربع ساعة أو حتى حين يدخل ليقدم لى الطعام فلا يمكث الا دقيقتين ، وربما تركت الطعام فى الطبق الى المساء دون أن أمسسه اذ كنت قد نسيت أن أكل . لا شيء يرهقنى الا عطش شديد يلهب إحشائى ، لعل مرجعه هو ما يصينى اللعب به من الحمى ، أو هو من أثر زحمة الأفكار وتصادمها فى رأسى . كنت أشرب الاناء كله جرعة واحدة ثم أناشد الحارس أن يأتى لى بمزيد ، ولا أفرغ من الشرب حتى يجف حلقى من جديد لشدة العطش .

وازداد الهياج حتى بلغ درجة أصبحت معها لا أطيق الجلوس على الكرسي لحظة لا أشغل نفسى طول النهار بشيء الا باللعب ، وأن أذرع الحجرة جيئة وذهابا بخطوة نزداد سرعة وعجلة كلما ازداد اقتراب الدور من نهايته ان شهرة كسب الدور والانتصار ، الانتصار على نفسى أنا تحولت الى هوس وهياج جنونى للانتصار ،

لاعب الشطرنج ٧٢

للانصرار على نفسى . تحول شيئاً فشيئاً الى نوع من الهياج الجنونى فأجد جسدى ينتفض من شدة اللهفة اذ أن كل لاعب من اللاعبين الاثنين داخل نفسى يتلمل اذا رأى غريمه لا يسرح كما يهوى هو فى اللعب . كل منهما يلاحق الآخر ويؤنبه وهو حائق عليه ، بل كنت انا نفسى اشارك فى هذا الحلق — قد يبدو لك هذا القول غاية فى السخف . اذا رايت احد اللاعبين يتلكا وازعق له : هيا هيا اللعب بسرعة ، بسرعة .

اعلم اليوم ولا ريب أن حالتى آتتذ كانت حالة رجل اصيب بمرض عقلى سافر ، لا اسم له عندى الا « هوس ادمان الشطرنج » على غرار هوس ادمان الخمر ، واطن أن كتب الطب لم تدرجه بعد بين الامراض العقلية، وكانت هذه اللوثة قد سممت روحى وكيانى ، فلحقنى الهزال واضطرب نومى .

وكنت أجد جفنى حين استيقظ فى ثقل الرصاص فلا أفنحهما الا بمشقة ، وزاد ضعفى حتى أن يدي أصبحتا لا تقويان على رفع كوب الى شفتى الا بارتعاش وجهد بالغ ، ولكن ما اكاد ابدأ اللعب حتى أجد نشاطى يتقبدادع من قوة وحشية ، أذهب واجيء ويدي مضمومتان ، وأسمع أحيانا كثيرة وكأنما من خلال ضباب ملوثة بالحمرة — صوتى أنا يأنينى من بعيد هاتفا بلهجة جافة قبيحة « كئى الملك . مات الملك » .

لا أستطيع أن أصف لك اليوم كيف حدثت الأزمة . غاية ما أعرفه أننى استيقظت ذات صباح على حال غير حالى المألوفة لى كل يوم ، أحسست أن جسدى قد نجا من اسبىدادى وشاق له أن يبقى مسترخيا فى الفراش وشعرت بنعب شديد لم أعده من سابق

لاعب الشطرنج ٧٣

منذ شهور ، هو الذى أثقل جفنى وأذاقنى سعادة
كبرى ، هى سعادة الشعور بالراحة وأنقشاع الغناء ،
فلم أشأ أن أفتح عيني على الفور وبقيت بضع دقائق
على هذا الحال أتتبع فى كسل لنيز باسترخائى فوق
فراشى .

وفجأة خيل الى اننى أسمع من خلفى أصوات أناس
ينتدق فيها الحرارة والحياة ، ويدور على السنتهم
كلام هادىء هيهات لك ، أن ننصور مقدار حبورى —
أنا الذى لم أسمع منذ شهور من قضائى الا لهجة
جافة قبيحة فقلت لنفسي : أنت تحلم . أنت تحلم فياك
أن تفنح عينيك ، وأدم علك دنيا الأحلام بدلا من أن نعود
تري من جديد حجرتك الملعونة والكرسى والحوض ونقش
الورق الراسخ كالآزل . . أنت تحلم ، استمر فى
حلمك .

ولكن حب التطلع غلبنى ، ففتحت عيني على مهل
وبحذر ، وبالشدة العجب ! وجدت نفسي فى حجرة أخرى
حجرة أفسح من حجرتى ، يدخل اليها النور حرا من
خلال نافذة ليس عليها سياج من حديد ، ورأيت من
ورائها — بدلا من الجدار الكثيب الذى طالما ألقته —
أشجارا خضراء يراقص الريح أوراقها ، الحجرة مطلية
بلون أبيض لامع ، وغطاء الفراش أبيض أيضا ، نعم ،
حقا كنت فى فراش آخر غير فراشى ، فراش جديد على ،
اننى اذن لم أكن أحلم ، فما هى ذى أصوات الناس
تتحدث برفق خلفى .

لا شك اننى هجت حين فوجئت بهذا كله ، اذ انجعت
نحوى على الفور خطى مسرعة ، واقتربت منى امرأة
على رأسها غطاء أبيض تمشى مشية نشطة ، انها
ممرضة !

لاهب الشطرئج ٧٤

أخذتني هزة من الفرح والسرور اذ كنت لم ار امرأة منذ سنة . لاريب اننى حملقت الى هذا الطيف الجميل بنظرات فيها توهج السعادة ولها لهيب، اذ قالت الممرضة لى « اهدا . اهدا ولا تتحرك » لم اكن ألقى بالى الا لسماع نبرة صوتها لأنها — أخيرا ! — نبرة صوت انسان ، اذن فالدنيا لايزال بها اناس هم غير قضاة وغير جلادين ، لايزال بها — ياللمعجزة ! هذه المرأة ذات الصوت الرقيق العطوف الذى يكاد ينطق بالحنان . وثبتت نظرتى على هذا الفم الذى نحدث الى بطيئة ، اذ ان هذا العام اللعين الذى قضيته فى حجرتى كان قد انسانى أن الطيبة لم تمنح من عالم البشر .

وابتسمت الممرضة لى ، نعم ابتسمت اذن فالدنيا لم تخل من اناس يبتسمون . ابتسمت ثم وضعت اصبعيها على شفثيها محذرة لى ، ثم ابتعدت .

أفتأتنى لى أن أطيعها ؟ عصيتها — على الضد — وبذلت جهدا كبيرا من أجل أن أعتدل وأجلس فوق الفراش لأنأملها بنظرتى، لتأمل مرة أخرى هذا المخلوق السمع الذى هبط على هبوط المعجزات ، وأردت أن أستعين بيدي فلم أستطع ، اذ كانت اليمنى مختفية فى لفائف من قمائش ابيض ، لا شك أنها ضماد . تأملتها أول الأمر بدهشة ثم بدأت أدرك على مهل أين أنا ، وأفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث لى ، لاريب أنهم أصابوا يدي بجرح او لعلى جرحنها أنا نفسى وهذا هو سبب وجودى بالمستشفى .

وزارنى طبيب عصر ذلك اليوم ، رجل شيخ طيب . لم يكن اسمى مجهولا عنده ، وتحدث عن عمى طبيب الامبراطور بكل احترام . واحسست على الفور أنه

لاعب الشطرنج ٧٥

يريد لى الخير ، ووجه الى أناء الحديث أسئلة عديدة من بينها سؤال عجيب له ، اذ قال لى :

— هل أنت متخصص فى الكيمياء أو الرياضة ؟
فنفتت له ذلك فتمتم .

— عجيب ! انك كنت تنطق فى هذيانك بأرقام وحروف مثل ج ٣ و ٨ عبارات لم نفهم نحن منها شيئا .
سألته عما حدث لى فابتسم ابتسامة غريبة وقال :
— شيء غير ذى خطر ، انها أزمة عصبية حادة .
ثم تمتم بصوت خافت وهو يلقي من حولى نظرة مستريية .

— هذا شيء طبيعى ، فأنت بقيت هناك منذ ١٣ مارس . اليس كذلك .

أومأت له برأسى نعم ، فغمغم .

— هذا ليس بالغريب . انه متوقع من خطئهم ،
ولست أنا الأول ، ولكن دع عنك الان كل قلق .
احسست من لهجته ونظراته الى أننى أصبحت فى يدمامونة .

وفى زيارة له أخرى بعد يومين أخبرنى بما حدث ان الحارس سمعنى وأنا أتحدث فى حجرتى بصوت مرتفع يشبه الصراخ ، فظن لأول وهلة ان بها معنى رجلا غريبا ، وأثنى تلاحمت واياه فى عراك شديد ، لم يكد الحارس بفتح الباب ويدخل حتى هجمت عليه وكنت اصرخ صرخات وحشية .

— هيا . هيا أيها الوغد ، أيها الجبان .

ثم حاولت أن أطبق يدى بعنف على رقبتة فصرخ يطلب النجدة وحمّلونى الى الطبيب فأفلحت وهم سائرون بى فى أن أتهلص من قبضتهم — وقذفت بنفسى الى نافذة الدهليز فى نوبة من الهياح الجنونى ،

لاعب الشطرنج ٧٦

فكرت زجاجها وأصابني بجرح في يدي — ها أنت
 ذا نرى اثره الى اليوم — كنت أصبت بشيء يشبه
 الحمى المخية حين نقلوني الى المستشفى ، ولكنى عدت
 سريعا الى وعبي . .
 وهمس لي الطبيب الطيب القلب .

— بطبيعة الحال لن اقول لهؤلاء السادة انك تماثلت
 للشفاء ، فانهم قادرون على أن يبدأوا معك من جديد ،
 واعتمد على ، اننى باذل كل جهدى من أجل انقاذك .

وأجهل أى تقرير قدمه هذا الصديق العزيز الى
 جلادى ، الذى حدث هو استجابتهم
 الى طلبه — أى الافراج عني ، لعله شهد لهم بأننى رجل
 معتوه ، او لعلهم هم راوا أن شخصى لم يعد يهمهم ،
 لأن هنتر كان قد احتل نيشيكوسلوفاكيا ، وأيقن أن
 سلطانه على النمسا أصبح مأمونا لا يخاف عليه .

وقدمت تعهدا بأن أغادر الوطن في بحر خمسة عشر
 يوما . وغرقت خلال هذه الفترة كلها في إجراءات السفر
 للخارج كما هى معهودة اليوم ، استخراج شهادات
 من ادارة القرعة ومن الشرطة ، الحصول على جواز
 سفر وتأشيرة للخروج وتأشيرة لدخول البلد الذى اقصدته
 وشهادة طبية ، فلم يبق لى وقت للتفكير فى الماضى .

ويخيل الى أن فى المخ قوى خفية منظمة ، تستبعد
 فوراً ، ومن تلقاء ذاتها ، كل ما يصيب الروح بضرر ،
 وبسبب هذا كنت اذا حاولت استعادة فترة السجن فى
 ذهنى ، خائنتنى ذاكرتى ولم تسعفنى ، ثم لم استطع
 أن أسنعبد فى ذهنى ما حدث لى الا بعد أسابيع عديدة ،
 حين وجدتنى على ظهر السفينة .

أنت ولا ريب تدرك الآن لماذا عاملت أصدقائك معاملة

لاعب الشطرنج ٧٧

شاذه ، كنت أقضي الوقت في حجرة التدخين بين كسل وتراخ ، فاذا بى أرى هؤلاء السادة يجلسون الى رقعة الشطرنج ، فسممرنى في مكاتى شعور بالدهشة والخوف ، اذ كنت قد نسيت تمام النسيان أنه في الامكان لعب الشطرنج على رقعة ملموسة ويقطع مرئية ، نسيت أنه لعبة تتطلب لقاء شخصين مختلفين يتخذ كل منهما مقعده تجاه الآخر ، واعترف لك أنه لزمنى بعض الوقت لأتبين ان هؤلاء السادة مقبلون على عين اللعبة التى كنت العبها في محبسى ، حين كنت أعمد من شدة اليأس الى أن لعب بنفسى ، ووضح لى أن الارقام والحروف التى كانت عدتى في بدربى العصيب على لعبة الشطرنج ليست الا رموزا للقطع والمربعات . وكان لذهنى حين رأيت ان حركة القطع الملموسة على الرقعة تطابق حركات القطع الموهومة في خيالى دهشة تماثل دهشة الفلكي بعد ان يحدد على الورق وبالحساب وحده ، موقع نجم، ثم يرى فجأة جرم هذا النجم يتألا لعينه لأول مرة في صفحة السماء .

نبتت نظرتى على الرقعة للأشاهد عليها كيف ان ارقامى وحروفى نجرى ترجمتها الى حركات ، فرس وقلعة ، ولزمنى لكى احكم على مركز كل من الخصمين ان انقل رموزى من عالم الخيال الى ما يجرى في عالم الواقع الذى تراه عينى ، وشيئا فشيئا غلبنى الشوق فنسيت كل ادبى وتدخلت في اللعب، ان الهفوة التى أوشك ان يقدم عليها صديقك ، كانت بمثابة طعنة في قلبى ، فأمسكت ذراعة بحركة غريزية وبلا تفكير كما تمسك بطفل يغالى بالليل بجسمه فوق سور شرفة ، ولم أدرك الا فيها بعد سماجة فعلتى .

سارعت الى تطمين السيد « ب » وقلت له اننا جميعا

لاعب الشطرنج ٧٨

نشكر هذه الصدفة التي أتاحت لنا معرفته ، وأضفت
متحدثاً عن نفسه أنني شديد اللفتة بعد سماع حكايته
على مشاهدة لعبه في الغد ..

بدأ عليه شيء من القلق وقال :

لا تنقرط في الوهم ، ان الأمر بالنسبة الى لن
يكون الا بمثابة تجربتي لنفسى ، نعم أريد أن أعرف ما
إذا كنت قادراً على لعب الشطرنج كما يلعبه بقية الناس
على رقعة ملموسة وقطع مرئية ، وضد خصم كائن
أمامى ، اذ لا يزال يخامرني شك في قدرتي على أن أفعل
هذا ، فهل هذه الأدوار المائة أو الألف التي لعبتها وحدي
جرت طبقاً للقواعد ولأصول ؟ أو أنها أوهام خيال
تشبه هذيان محموم يتخطى في قفزة صلات الواقع بين
فعل وفعل .

ثم استطرد :

— أنت يا صاحبي غير جاد فيما أرجو إذا ظننت أنني
سأطاول بطلا عالمياً أو انتصر عليه .. الشيء الوحيد
الذى يهمنى هو أن أعرف بدليل قاطع ما إذا كنت قد
لعبت الشطرنج حقاً في حجرتي بالفندق ، أو أنني كنت
حينئذ مجنوناً ، أو بكلمة واحدة : أريد أن أعرف هل
جاوزت الآن أم لم أتجاوز بعد منطقة الخطر ، هذا هو
غرضي الوحيد من اللعب غداً .

سمعنا آنذ رنة « الجونج » تدعونا الى العشاء وكان
حديثنا قد دام ساعتين تقريباً ، لأننى رويت هنا كلام
السيد « ب » بشيء كثير من الاختصار ، فشكرته بحرارة
وودعته ، ولكنى لم أكد ابتعد عنه حتى جرى خلفى ،
وقال فى هياج بلغ من حدته أن كلامه انقلب الى قافاة :
كلمة أخرى ، لا أحب أن يسوء أدبى مرة ثانية ، قل

لاعب الشطرنج ٧٦

لأصدقائك أننى لن ألعب الا دورا سيكون نهاية حكاية
قديمة وخاتمة قاطعة لا بداية من جديد ، اذ لا أود ابدا
أن تفترسنى ثانية حمى اللعب أو جنون اللعب ، كلما
ذكرت ذلك سرت الرعدة فى بدنى ، بل ان الطبيب
حذرنى بكلام صريح من العودة للعب ، فان الرجل الذى
بصاب بلوثة قد ينعكس رغم شفاؤه ، وانه من الخير
لرجل غاله مثلى هذا الخمر أن لا يقترب مرة أخرى من
رقعة الشطرنج . انت تفهم حالى ، اننى لن ألعب الا
دورا وحيدا لاطمئن . هذا هو كل شيء .

وفى تمام الساعة الثالثة من الغد اجتمعت زمرنا فى حجرة التدخين ، وانضم الينا ضابطان من طاقم السفينة ، هما من هواة الشطرنج بعد ان حصلنا على اذن خاص بمشاهدة اللعب .

لم يتركنا « زينتوفيك » ننتظره هذه المرة ، وبدأت مباراة هيهات أن تنسى ، نازل فيها مواطنى المجهول بطلا تحف رأسه هالة المجد ، وانى لشديد الأسف أن هذه المباراة جرت أمام أناس لا يبلغون مقامهما ، وانها لم تسجل فضاع خبرها كما ضاعت الألحان النى كانت نجرى بها أصابع بيتهوفن على البيانو من وحى الساعة ... قد حاولنا بطبيعة الحال فى اليوم التالى ان نعتمد على الذاكرة وحدها فى تسجيل سير المباراة ، ولكننا لم نفلح ، لأن اهتمامنا كان الى اللاعبين لا الى المباراة بحيث شق علينا تسجيلها فيما بعد .

ان التناقض العقلى بين اللاعبين زاد تمثله فى مسلك كل منهما اثناء المباراة ، زينتوفيك جامد متصلب يلعب وهو أسير خبره ، لا يهتز ولا يرفع بصره عن الرقعة أما التفكير فانه يقتضى منه بذل جهد جسمانى يشد كل اعصابه ، على حين أن السيد « ب » بقى طليقا ناجيا عن الأسر ، انه يمثل أرقى درجات الهواية ولا يرى فى اللعب الا وسيلة لتسلية لذيدة ، انه يشرح لنا بغير مبالاة بين كل حركة وحركة معنى ما يفعل ، ويشعل سيجارة بيد مرتعشة ولا يلقي نظرة الى الرقعة الا قبل ان يلعب حركته ببرهة وجيزة . هذا هو شأن لاعب يحسد من قبل خطة خصمه .

لاعب الشطرنج ٨٢

سار اللعب حينئذ أول الأمر ثم وصل بعد الحركة السابعة أو الثامنة الى وضع ينم عن أن لكل لاعب خطة ثابتة مدبرة ، وبدأ زينتوفيك يطيل تفكيره وفهمنا من ذلك أن المباراة قد بدأت حدها من الجد . وكان ينبغي لى ان أردت الصدق أن اقرر أن وقع المباراة علينا نحن المشاهدين المبسطين لم يكن الا خيبة الأمل ، فكلما توالى تجمع القطع فى أشكال زخرفة هندسية زاد عجزنا عن فهم معناها الخبيء ، لا نصل الى ادراك مرمى كل لاعب ، ولا تبين الظفر الى أى جانب يميل ، كل ما نراه هو قيام اللاعبين بسوق القطع على قائدين للجند لاحداث ثغرة فى حصون العدو ، نرى سير المعركة ولا نفهم هدفهما المنشود ، فان اللاعب الخبير مثلها يدير خطته من قبل بمقدار عدة حركات سابقة .

واقترن جهلنا قليلا قليلا بتعب أحسنا به وبخاصة فى فترات التريث الطويلة التى يدوم فيها تفكير « زينتوفيك » ، وكان واضحا أن اللاعب النمساوى يضيق ذرعا بهذا البطء ، وأخذت الحظ يقلق أنه بدأ يتلمل فى جلسته ، يشعل فى هياج سيجارة اتر أخرى، أو يخط ملاحظة بيدعجلى ويطلب زجاجات من المياه المعدنية يفرغها على الفور فى جوفه ، وكان واضحا أنه أسرع من « زينتوفيك » مائة مرة فى تدبر حركته اذا وصل « زينتوفيك » بعد تفكير طويل الى قرار وقام بتحريك قطعة بيده الثقيلة ، راينا صاحبنا يتتسم شأن من توقع هذه الحركة منذ زمن طويل ، ورد عليه من فوره بحركة منه ، ان ذهنه ولا ريب يعمل فى سرعة شديدة بحيث يدرك كل احتمالات الانتصار الباقية لخصمه وكلما زاد بطء « زينتوفيك » زاد قلق غريمه ، ونقلت شفتاه دلالة على الغضب بل العداء .

لاعب الشطرنج ٨٣

ولكن « زينتوفيك » لم يبال قط بمثل هذه المنغصات الهيئبة ، بل كلما قل عدد القطع على الرقعة زاد تفكيره وطال ، وان بقى لا يتحول عن عبوسه وصمته ، وحين بلغت المباراة الحركة الثانية والأربعين كانت قد دامت ساعتين وثلاثة أرباع الساعة ، وكففتنا نحن عن منابعها الا بنظرة سارحة مضغضة ، كان أحد الضابطين قد غادرنا وبقي زميله يقرأ في كتاب ، ولا يلقي نظرة الى الرقعة الا حين يقوم أحد اللاعبين بتحريك قطعة وفجأة حدث شيء مفاجيء غير متوقع ، كان الدور في اللعب على « زينتوفيك » ، ووضع سبافته على قطعة الفرس ليحركها ، فاذا بالسيد « ب » حين رأى هذه الحركة يتضام جسده كالهرة على وشك أن تثب ، وبدأ يرتعش ، وقدم قطعة الوزير بحركة نابئة ثم صرخ بلهجة الانتصار :

— انتهينا ، هذا هو القول الفصل .

ثم مال للوراء وعقد ذراعيه على صدره ورمى « زينتوفيك » بنظرة تتحداه وتلمع بلهب دفين . انكفأنا على الرقعة لنرى دليل الانتصار الذي أعلنه علينا ، فلم نر أول الأمر شيئاً يهدد « زينتوفيك » بالخطر ، وقلنا لاشك أن صرخة صاحبنا ستجد مصداقها في حركة قادمة ، يشق علينا نحن الهواة المبتدئين قصار النظر ان نراها من قبل ، وبقي « زينتوفيك » وحده جامداً غير آبه بهذه الصرخة كأنه لم يسمعها ، ثم لم يحدث شيء ، الساعة الموضوعة على المفصلة لتقبس الفترة المحددة بين كل حركة وأخرى تسمعنا دق رقاصها وسط صمت مطبق مضت ثلاث دقائق ، ثم سبع ، ثم ثمان ، هذا و « زينتوفيك » باق على ثباته لا يتحرك

لاعب الشطرنج ٨٤

ولا يهتز ، وعلى ذلك خيل الى ان سعة منخزيه الثقيلين قد زادت من اثر جهد يبذله .

شقى على السيد « ب » كما شقى علينا احتمال هذا الانتظار فنهض قفزا من مقعده وأخذ يزرع حجرة التدخين جيئة وذهابا ، بخطى بطيئة اول الأمر ، ثم زادت سرعتها درجة بعد درجة ، وراقبته الزمرة كلها بشيء من الدهشة ، أما أنا فقد تملكنى القلق فقد تبينت أنه رغم حنقه ينقل خطاه في حيز محدود ، بحيث يظن من يتأمله ان في وسط الحجرة حاجزا غير مرئى يصده ويجبره ان يعود القهقري ، وأدركت وأنا أرتعد انه يكرر في حجرة التدخين مشيه المحدود داخل مجال حجرته في الفنق ، لابد أنه كان هكذا يمشى — الشهور الطوال كالوحش في قفصه ، يده متوترتان ، وكتفاه غائران ونظره الثابتة المحمومة تشع باحمرار وميض الجنون .

غير انه ظل مع ذلك في حجرة التدخين مالكا لزمَام نفسه ، يلتفت بين الحين والحين وهو نافذ الصبر الى المنضدة ليرى ما اذا كان « زينتوفيك » قد لعب حركته .

تسع دقائق ، عشر دقائق مرت هكذا ، ثم حدث شيء لم يكن أحد منا يتوقعه رفع « زينتوفيك » يده الثقيلة ببطء فعلمت به انظارنا ، لنرى ماذا عساه ان يفعل ، ولكن « زينتوفيك » لم يلعب ، بل يعثر قطع الشطرنج بظهر يده ، ولم ندرك على الفور انه يعنى بذلك تخليه عن المباراة وانه يستسلم قبل ان نرى هزيمته حين تقع .

اذن حدث امامنا ما لا يصحقه العقل :
هذا بطل عالمى فاز في عديد المباريات يلقي سلاحه لرجل مجهول ، لرجل لم يمس رقعة شطرنج منذ خمس

لاعب الشطرنج ٨٥

وعشرين سنة وهذا صاحب لنا مجهول يقتصر على أمر
لاعب في العالم ، أمام حشد من الناس .

نهضنا من مقاعدنا ونحن من الهياج في غفلة مما
نفعل ، كان كل منا يحس أنه ينبغي له أن يفعل شيئا
أو يقول شيئا ، لينفخ عن انبهاره وجذله أما الوحيد
الذي ظل جالسا فهو زينتوفيك ولبث هكذا فترة طويلة
رفع رأسه بعدها وصوب الى صاحبنا نظرة قاسية
ثم سأله :

— هل لك في دور آخر ؟

اجابه السيد « ب » بحماس انقبض له قلبى .

— بكل تأكيد .

ثم جلس من قبل أن الحقه وأنبهه الى سابق وعده
بأن لا يلعب الادورا واحدا ..

وبدا في سرعة محمومة يصف القطع ، وبلغ من شدة
رعشة أصابعه ان فلتت منه بيدقان وتدحرجا على الأرض ،
وتحول الضيق الذى خلفه من فرط هياجه الى لوعة
بالغة ، من الواضح أن هذا الرجل الهادىء المسالم قد
غاله العناد والهوس ، وعانت هزته العصبية تلوى ركن
فمه واخذ جسده كله يرتعش كأنما سرت فيه حى
مفاجئة .

فهمست اليه برفق :

— حلمك ! لا تلعب ، يكفىك اليوم دور واحد فانت

متعب .

انذعق ببهجة ووجهة ينطق بشراسة مذمومة :

— هاها ! متعب ! اننى كنت أستطيع أن لعب

سبعة عشر دورا لولا هذا البطء ، لا بكرينى منه الا اننى

أبقى معه متقد الذهن يقظا بلا طائل .

لاعب الشطرنج ٨٦

ثم التفت الى زينتوفيك وقال له بلهجة عنيفة ، بل تكاد تكون غير مهذبة :
— أنت الذى تبتدىء .

الذى عليه زينتوفيك نظرة هادئة متأنية ، ولكنها تشبه فى قسوتها الكمة من قبضة يد .

أصبح كل خصم يواجه خصمه ينوتر خطر وكراهية طاغية ، لم يعد الاثنان زميلين فى لعبة يحاول كل منهما ان يلتمس منها شيئا من اثبات تفوقه ، أصبح حالهما حال عدوين أقسم كل منهما ان يحطم الآخر .

صبر زينتوفيك طويلا قبل ان يلعب حركته الاولى ، وخيل الى انه يفعل ذلك عن عمد ، لاجرم انه أدرك ان البطء يثير خصمه ويغيظه فاستغله كسلاح شأن الخبير المدرب .

وبعد اربع دقائق طال مرها علينا افتتح زينتوفيك اللعب بحركة بسيطة مألوفة بأن قدم بيدق الملك خطوتين الى الامام . فكان رد السيد « ب » ان قلده وفعل مثلما فعل .

توقف زينتوفيك من جديد ، لا يتخلى عن البطء الذى يغيظ خصمه وكانت قلوبنا تخفق ونحن ننتظر ، شأن من يرى البرق واذا انتظر جلجلة من بعده وجدها تغيب ثم تغيب هذا ، وزينتوفيك ثابت لا بهتز ، يفكر فى هدوء وبطء ، وببنت بصورة أوضح انه يفعل ذلك عن عمد وخبت ، ومع ذلك حمدت هذا البطء لانه اتاح لى أن أنأمل السيد « ب » مليا . . كان قد شرب ثلاث زجاجات من المياه المعدنية فنذكرت عطشة الذى كان يلهب جوفه سجنه ، ظهرت لى على هذا الرجل المسكين علامات الهياج المريض ، جبينه مبلل بالعرق ، وأثر الجرح فى يده زاد نطقا واحمرارا وبقي على ذلك زمنا وهو مالك

لاعب الشطرنج ٨٧

لزام نفسه ، ولكنه بعد الحركة الرابعة — حين رأى زينتوفيك يطيل نفكيره انفجر وصرخ فيه :
— اللعب ! ماذا بك ؟

رفع اليه زينتوفيك عينيه بآراده وقال :
— لقد اتفقنا — أن لم أخطيء — على أن فترة التريث بين كل حركة وأخرى مسموح لها أن تمتد إلى عشر دقائق وأنا من مبدئي أن لا اللعب بسرعة أكثر من سرعتي هذه .

غضب السيد « ب » شفته وبدأت بمساقه من تحت المنضدة تعلو وتنخفض بسرعة لا ينقطع تزايدها . انه سيفقد وعيه ، وهذا ما توقعته .

وحينما وصلنا للحركة الثانية وبدأت فترة التريث وقع حادث جديد ، كان السيد « ب » قد صبر من قبل لفترات التريث بضيق متزايد ، فإذا به هذه المرة يفقد سيطرته على نفسه واخذ يميل إلى الوراء وإلى الأمام وينقر بسبابته على المنضدة . .

رفع اليه زينتوفيك رأسه الثقيل وقال :
— أرجوك ، من فضلك لا تنقر على المنضدة بسبابتك فان هذا يزعجني ، اننى لا أستطيع اللعب اذا سمعت ضجة .

ضحك السيد (ب) ضحكة خاطفة وقال :
— ها ، ها ، هذا ما أتبينه .
احمر وجه زينتوفيك وأجاب بصوت قاس شرس :
— ماذا تعنى بقولك هذا ؟
فعاد السيد (ب) يضحك من جديد ضحكة جافة شريرة وقال :
— لا أعنى شيئاً ، كل ما فى الأمر أن أعصابك هائجة .

لاعب الشطرنج ٨٨

أحتى زينتوفيك رأسه وصمت ، وصبر سبع دقائق قبل أن يلعب حركته التالية وسار الدور بعد ذلك على البطء المميت ، وزاد جمود زينتوفيك حتى بلغ درجة التحجر ، وتوالى ازدياد غرابة مسلك غريمة ، وبدأ عليه كأنما نسى اللعب وشغل نفسه بشيء آخر كان قد كف عن ذرع الحجرة ذهابا وإيابا واستقر على مقعده لا يتحرك ، ينظر الى القضاء أمامه نظرة شاخصة شاحبة ، وهو يتمم بكلمات غير مفهومة . . هل هو مستغرق في التفكير في وضع خطط للعبة لا نهاية لها ؟ أم هل بدا يلعب دورا جديدا في ذهنه كما ظننت ؟ وأصبح لا مفر لنا من تشبيهه اذا جاء دوره في اللعب ، فلا يقتضيه تدبر حركته الا دقيقة واحدة ، ومع ذلك زاد يقينى بأنه نسينا جميعا — نسينا نحن وزينتوفيك ايضا ، وأنه أصبح فريسة لنوبة من الجنون البارد توقع لها أن تنفجر بين لحظة وأخرى . وقد حدث هذا فعلا عند الحركة الرابعة عشرة ، اذ لم يكذ زينتوفيك بفرغ من حركته حتى قدم السيد (ب) قطعة الفيل صفوف ثلاثة دون أن ينظر الى الرقعة وصرخ صرخة افزعنا :

— كش الملك . مات الملك .

انكفأنا على الرقعة نحاول ان نفهم كيف انتصر ، ولكن حدث بعد لحظة حادث لم يكن احدهما يتوقعه . رفع زينتوفيك رأسه شيئا فشيئا في بطء شديد وجال ببصره علينا وكان لم يسبق له ان فعل ذلك ، ورأينا على شففيه ابتسامة ملؤها الهزاء والرضى كأنما يشعر بسرور لاحد له ، ولما فرغ من تذوق لذة استعلائه الظافر الذى لا نفهم سببه قال للزمرة كلها بأدب مصطنع :

لاعب الشطرنج ٨٩

— آسف أيها السادة . اننى لا أرى الملك قدمات .
 فهل لأحد منكم أن ينفصل ويشرح لى كيف مات ؟
 تأملنا الرقعة ثم تحولت نظرانا القلقة الى السيد
 (ب) — ذلك لأن ملك زينتوفيك كان فى حمى بيدق —
 حماية لا يشق على طفل أن يراها ، اذن لم يمت الملك .
 فهل اخطأ صاحبنا فى وضع احدى قطعة ؟
 اعاده الصمت المطبق من حوله الى وعيه ، ففحص
 بدوره الرقعة واخذ يفانى بعنف :

— ولكن الملك ينبغى أن يكون فى المربع ف ٧ ، انه
 لبس فى مكانه ، ليس فى مكانه قطعاً ، انه لبس فى مكانه ،
 ليس فى مكانه قطعاً ، انت اخطأت اللعب ، وكل ما على
 الرقعة خطأ ، فهذا البيدق ينبغى أن يكون فى مربع د ٥
 لا ج ٤ ، ليس هذا هو الدور الذى تلعبه .. انه .

ثم سكت بغتة ، كنت امسكت بذراعة بل قرصته
 بشدة قرصة أحس وقعها رغم غيبوبته وضلاله ،
 فالتفت ونظر الى بعينى رجل يمشى فى نومه :
 — ماذا جرى ؟ ماذا تريد ؟

فلم افعل الا أن همست له : تذكر ، ولست باصبعي
 اثر الجروح فى يده ، فتابع حركتى — بنظرة خاملة
 شاسخة ، ونظر الى اثر الجرح وقد نطق احمراره
 رعشة تهز جسده وتتم بشفتين شاحبتين .

— بحق الله ، قل لى ، هل فعلت شيئاً مريباً ..
 هل أنا من جديد ..

فقلت له بهدوء : كلا . ولكن كف فوراً عن اللعب .
 قد آن أوان انصرافك عنه ، وأذكر تحذير الطبيب .
 فنهض من فورهِ وانحنى امام زينتوفيك بأدبه المعهود
 من قبل وقال :

لاعب الشطرنج ١٠

— ارجو الصفح عن خطئى ، كان قولى «كش الملك» حماقة منى ، هذا واضح ، انك انت الذى كسبت الدور وانتصرت .

ثم التفت الينا وقال :

— وكذلك التمس منكم أيضا الصفح عنى ، الم أحذركم من الغلو فى الثقة بمقدرتى — معذرة لوقوع هذا الحادث السخيف — انها آخر مرة فى حياتى أحاول أن اللعب فيها الشطرنج .

وانحنى أمامنا ثانية وانصرف كما قدم علينا من قبل بحركة يلفها النجمل والغموض ، وكنت أنا وحدى من بينهم مدركا لماذا لن يلمس هذا الرجل من بعد رقعة الشطرنج ، أما بقية الزمرة فقد مكثت يخامرها شعور بانها قد نجت من خطر مجهول .

وزمجر ماك كنور قائلا وقد خاب أمله :

— ياله من غر أحق .

وكان زينوفيك آخر الجميع فى مقادرة مقاعدنا ، ثم من قبل أن ينصرف القى نظرة أخرى الى الدور الذى بدأ ولم يرم وقال بلهجة السمع الكريم المفضل :

— خسارة . لم يكن اللعب رديئا حتى ينتهى هكذا ، ان لصاحبكم رغم أنه من الهواة — موهبة مدهشة . .



مقدمة

توماس مان على سمو مكانه — جائزة نوبل — يستحق منا قدرا أكبر من الانصاف ، مبلغ علمي أن أعماله الكبرى لم تترجم بعد ، وإن كانت فلا تعقيب عليها أو ذكر لها في دراسات نقدية مسنيفة ، (أسرة بودنبورك — ١٩٢٤ ، الجبل السحري — ١٩٢٧ — يوسف (١٩٣٤ — ١٩٤٥) الدكتور فاوست ١٩٤٩) له الى جانب هذه الروايات الطويلة روايات قصيرة ذاعت شهرتها مثل طونيو كروجر (١٩٠٣) تريستان (١٩٠٢) الموت في البنديقية (١٩١١) ، وها أنذا قد أخذت على عاتقي أن أنرجم لك طونيو كروجر عن الانجليزية والفرنسية معا ، وأود أن أنبهك بادئ ذي بدء ، أنك لن تجد في هذه الأقصوصة هذا الذي اصطالحنا على تسميته بالحدوثة ، وقد يصفها بعض النقاد المحدثين عندنا بأنها أقرب الى المقال منها الى القصة ، كما حكموا على أعمال أخرى مماثلة في أدبنا المعاصر ، ونفى صفة القصة عن طونيو كروجر لم يقل به ولا ناقد واحد في الغرب . هي اعترافات تدور كلها حول صراعات عديدة محتدمة في ضمير البطل ، والحب ليس فيه عناق ولا حتى لقاء بل نظر من بعيد ، والحوار يكاد يكون معدوما ، الأفكار اجترار دائم ، مما أوقعها في شرك التكرار ، عمادها التحليل والموصف ، وسيروك أنك لن تجد فيها اسما لحى أو جماد الا تبعته صفة ، وصفتان ، وربما ثلاث ، وفي بعض الأحوال أربع وخمس ، طبعا بقصد التحديد وحمك على الشعور بالالتحام

طونيو كروجر ١٤

بالوجود بعد اكتشافه ، كأن الوصف وصف أعمى يلمس الأشياء بأصابعه وهو يقلبها على كل وجه وجانب حتى يستوعبها أدراكه ، تتابع الصفات هو تتابع اللمسات ، وقد يغتفر للاديب أنفته من أن يساير هوى قرائه الى السهولة ولكن يحسن به ألا يتسلى بامتحان صبرهم امتحانا عسيرا ، ولا يكره القارئ أن يلتبس المؤلف ما شاء له من النسلية ولكن ليس على حسابه ، اذا تحدثت في قصة عن فقراء فلا بأس أن تصف مائدتهم بأنها من خشب أبيض ، واذا دفع نوماس مان ذراعك أضفت — وسطحها مقشور ، واذا دفعك مرة أخرى كتبت — ورجلها مكسورة ... أما حين لا يزيد دور رجل غريب يقابلك في القصة عرضا ولرة واحدة لا تكرر ، وليس له أقل تأثير عليك ولا على مسار القصة ، وانما شاء القدر أن يجلس بجانبك على مائدة الطعام فما الداعي لأن تصفه لنا بأنه بدين ، مصاب بالربو ، يسد منخرا له بسبابنه لينفخ أنفسه بقوة من منخره الآخر ليسلكه من زكام ، ثم تصف لنا ملبسه وصوته ونطقه .. اذا لاحظت هذه المبالغة في اشتراط الصفة ونابعتها تبدد من فورك لذة مشاركتك للمؤلف في اكتشاف الوجود — ولا مبلك الى الالتحام ، ولك بعد ذلك أن تبسم لهذا الهوس اللذيق .

عجيب أمرى ، أبدا لا بمدح الأقصوصة ، بل بفخسح نزوانتها ، ولكنى أريد أن أبرئ ذمى منك ثم أخلى من بعد بينك وبينها للتمتع بالتغلغل الى أعماق الأعماق حيث تدور صراعات عجيبة في نفس انسان أصابنه لوثة الفن . ان عماد هذه الأقصوصة هو الفن والفنان .

هل يتحدث توماس مان عن نفسه في هذه الأقصوصة على لسان بطلها ، فهو لا الاثنان في مدينة تقع في شمال

طونيو كروجير ٦٥

ألمانيا على بحر البلطيق (اسمها لوبيك — وان لم يذكرها صراحة في الأقصوصة) وأب الاثنين تاجر حبوب ، له منصب رسمى فى بلدته ، فهو ينتمى الى الطبقة البورجوازية ، انه رجل جاد بارد الأعصاب متفكر يحكمه المنطق لا الخيال ، وأم الاثنين امرأة جميلة ، مولدها فى بلاد قصىة فى الجنوب يسرقها الخيال من المنطق ، وتحب الموسيقى واللذة الحسية ، متقدة العواطف ، تكره الغم ، اذا حط عليها نشته نش الذباب . فالأب والأم من طرازين بينهما تناقض الأضداد ، جنسا وخلقة وطبعاً .

فهل هذه الأقصوصة سيرة ذاتية ؟ ينبغى الا يشغلنا هذا السؤال كثيراً ، فليس هذا هو المهم فيها ، المهم فيها هو موضوعها ، ينبغى أن يستقل للحكم عليه لقيمتها الذاتية ، وأنت تعلم أن لا فن ينقل عن الواقع بأمانة ، لابد من الخيانة ، الأمانة الوحيدة المقبولة هى أمانة الفنان للصدق الفنى ، وهو شئ مخلف أشد الاختلاف عن الصدق الأخلاقى .

وهذا التناقض بين الأب والأم فى القصة كان خليقاً بأن يؤذن بسلالة تشذ عن الأصلين وبقية السلالات أما رقياً أو انحطاطاً ، هذا هو الصراع . عاناه الابن طونيو كروجير حين أنس فى نفسه ميلاً الى الفن ، فهو يتمزق بين أعراف البورجوازية — أرثا عن أبيه — وبين شطحات البوهيمية واللذة الحسية ، أرثا عن أمه ، هل يكون الفنان فى نظره مساوياً لقبقة الناس ، أم أن قدره المحتوم ، أو قل لعنته المحتومة — تجعله شاذاً عنهم ، هم لهم ضمير مستريح ، واندماح فى ركب البشر ، أما هو فتعذبه دواما عقدة الذنب ، ولا يجد له مكاناً فى هذا الوجود يستريح له . هل الفنان جنس من

طونيو كروجر ٩٦

المخلوقات لا تسرى عليه الأحكام التي يخضع لها الناس .
وقد غالى طونيو في تصويره لشذوذ الفنان حتى كاد
يشترط له هذا الشذوذ في طبائعه ، بل في خلقته وصحته ،
كما غالى في تصوير التناقض بين أبيه وأمه ، ففى
تقديره أن شمال جبال الألب فى ألمانيا محرومة من بلد
مثل فلورنسا فى جنوبها ، تدخلها فتحسب أنك تدخل
متحفاً ، فى فلورنسا أرث حضارة اغريقية رومانية ، فى
شمال الألب فى ألمانيا بصمات غزو بربرى ، فالناس
فى الشمال حيث ولد طونيو وله ملامح وطبائع أمه بنت
الجنوب — لهم نظرة عملية تتبعث من عيون زرق تحت
شعر أشقر ، يقول طونيو أن الفنان يظل غريباً بينهم ،
انه يحلم ببلاد الجنوب ، وان كان أعجابه كله لأهل
الشمال ، فاذا وصف ايطاليا قال ان سهولة الحياة
فيها تبلغ حد الكسل ، وحلاوة العيش فيها ممجوجة
لانها لزجة كالعسل .

فى طونيو كروجر حشد لآراء كثيرة عن الفن والفنان ،
ستجد امندادها فى اقصوصة (الموت فى البندقية)
فالموضوع يكاد يكون واحداً فى الاثنين : صراعات الفنان ،
انتصارانه وهزائمه ، لا فى الحياة بل فى باطن روحه ،
آراء مهما كانت قيمتها تهم كل المشتغلين بالفن ، ولعلها
بالنسبة لغيرهم فتح لباب عالم جديد عجيب ، فماذا
عليهم لو ولجوه ، وقد قرأتها بمنعة لا نخلو من ابتسام
وحسرة ، أحسست بأن هذه الآراء قد عفى عليها
الزمن ، واستعبرت بأسى اذ لا شئ يدوم ولكن
الألبوم الذى نحمله فى أيدينا بحرص شديد لا نستطيع
أن نمزق صفحاته الاولى ، لابد أن نتأملها ونحن نطويها ،
فما أبعد الصورة التى رسمها توماس مان فى شبابه
للفنان الممزق بين البورجوازية والبهيمية ، بين انتمائه

طونيو كروجر ١٧

للمجتمع وشذوذه عنه ، منغلق على نفسه ، المفرط في
تأنيقه ، القافل عن انه تفسخ هو وأبيه .
ما أبعد صورة هذا الفنان عن صورته في الوقت
الحاضر ، لم يعد يعيش في قوقعته ، أو على قمة
الجبل ، بل همومه هي هموم جماعية على مسرحه
القومي ، بل والعالمي .. انه ليس موهبة فحسب بل
موهبة ودرس والتزام .

الفصل الأول

كانت شمس الشتاء المختبئة وراء كسف من السحاب
تسجل على المدينة المحشورة داخل أسوارها الا
علالة باهنة من ضوء ضئيل شاحب ، الشوارع — تحف
بها على الجنين منازل ذات قمم مثلثة الاضلاع — بللتها
الأمطار ، والان تصفر فيها الرياح وبين الحين والحين
يساقط نوع من البرد الهش وسط ، لا هو ثلج في تجمد
ولا هو ثلج في تدف .

انتهت آخر حصة في المدرسة ، واخذ سيل من
الصبيان — ردت اليهم حريتهم — يتدفقون في قرارهم
يمنة وسرة للتلاميذ الكبار حمل لرزم كتبهم بخيلاء ، فهم
يرفعونها ويسندونها الى الكتف اليسرى ، ويدفعون
الذراع اليمنى في حركة المجذاف لمغالبة الرياح وشق
طريقهم الى وجبة الغداء . أما الصغار فسيرهم كخبث
الخيول ، يجعل الثلج المذاب يتطاير تحت أقدامهم من كل
جانب ، ويجعل أدوات الهندسة تصطك داخل حقائبهم
المصنوعة من جلد الفئمة ، ولكن الكبار والصغار على
السواء يرفعون بين الحين والآخر الكاسكيت عن الرأس
بخشوع وأدب ، تحية لأساتذة ، فيهم الملتحي ، وفيهم
اللابس قبة عالية ، وهم يتعدون بخطى وقورة .

— ما الذى شغلك عنى يا هانز ؟
هكذا هتف طونيو كروجر بعد أن طال وقوفه منتظرا

طونيو كروجير ٩٩

فوق الرصيف ، وتقدم مبتسما الى صديقه وهو يخرج من الباب في صحبة رفاق آخرين ويهم بالانصراف معهم . نظر اليه صديقه وأجابه :

— لماذا سؤالك ، آه ، تذكرت الان ، تعنى اتفقتنا السابق على القيام معا بجولة أخرى .

لزم طونيو الصمت وغامت عيناه ، هل نسي هانز ان فلا يذكر الا الان ، أنهما على موعد للقيام معا بهذه الجولة ظهر اليوم ، في حين أنه ظل يذكرها باغتراب منذ ان اتفقتا عليها ، وقال هانز لرفاقه مودعا لهم :

— سأصحب كروجير في جولة مرة أخرى .

وسار الاثنان الى اليسار ، بينما اتجه الآخرون في تسكع الى اليمين ، امام هانز وطونيو متسع من الوقت للتنزه بعد الانصراف من المدرسة ، فكلاهما من أسرة لا تتناول طعام الغداء الا في الساعة الرابعة بعد الظهر وهما من أبوين من كبار التجار ويشغلان مناصب رسمية ، ولهما نفوذ كبير ومقام بين الناس ، فأسرة هانز تملك منذ أجيال مصانع فسيحة لبناء السفن قائمة على ضفة النهر ، حيث تعمل المناشير الآلية القوية ، وهى تلهث وتبصق في شق جذوع الاشجار .

اما طونيو فهو ابن القنصل كروجير (القنصل عضو مجلس محلى منتخب) الذى ترى الناس كل يوم اسم متجره مكتوبا بأحرف سود غلاظ على أكياس الحبوب فوق عربات النقل ، ودار أسرته المتوارثة عن الجدود أجمل دور المدينة .

لم ينقطع الصديقان في سيرهما عن رفع غطاء الرأس تحية لأناس من معارفهما ، بل ان من بين هؤلاء من كان هو البادية بتحية هذين الصبيين ، لم يتجاوز عمر احدهما الرابعة عشرة ، كلاهما يحمل مخلاة الكتب

طونيو كروجر ١٠٠

على ظهره ويرتدى ملابس حسنة ينعم فيها بالدفء .
لهانز سترة كسترة التجارة ، زرقاء قصيرة ، تنحدر
ياقتها العريضة فتغطي كتفيه وظهره ، ولطونيو معطف
رمادي له حزام ، على رأس هانز قلنسوة تحسبها لبحار
دانمركي ، تتدلى من حافتها شرائط قصار ، تنفلت من
بينها خصلة من شعر اشقر في لون أعواد الكتان عند
الحصاد ، انه صبي ما أبهى ملامحه وجهة ورشاقة
نامته ، كتفاه عريضتان وعيناه في زرقة نصل من الفولاذ
لهما نظرة رحيبة طليقة . أما طونيو فيلبس قلنسوة
مستديرة من الفرو ، وجهه أسمر وملامحه نقيّة شأن
أهل الجنوب ، عيناه داكنتان كأنها تغشاهما ظلال
رقيقة ، جفناه جد ثقيلين ، نظرتة توحى بالأحلام وبعض
التردد ، تحسب أن قلما مرهفا هو الذي رسم فيه
ونقنه ، خطواته متراخية ولا تثبت على وثيرة واحدة ،
أما هانز فيمشي نشيطا على قدمين عفيتين يسترهما من
داخل الحذاء جورب أسود فكأنها يوقع بخطوه الرشيق
لحنا منغما .

ولزم طونيو الصمت ، انه يتألم ، يقطب حاجبيه
المقوسين قليلا ويكور شفقيه ليتمكن من الصفر وهو
ينظر من جنب الى بعيد ، مائلا برأسه ، حتى أصبح
من طبعه المميز له التزام هذا الوضع وهذا التعبير الذي
تنطق به ملامحه .

ودس هانز فجأة ذراعه تحت ذراع طونيو ، ونظر
اليه خلسة ، لانه يفهم حق الفهم شجون صديقه ، فما
لبث طونيو بعد أن سارا معا بضع خطوات دون أن
يتكلم أن شعر بحنان دافق يغمره ، وقال هانز وهو
يخفض بصره الى الرصيف :

— صدقتني ، اننى لم أنس ، ولكنى ظننت من الاحوط

طونيو كروجر ١٠١

الا نقوم بهذه النزهة لأن الجو رطب وسيء ، ولكنى لا أبالي بهذا كله ، وكان جميلا منك أنك مع ذلك قد اننظرتنى ، فقد ظننت أنك انطلقت الى الدار وكان ذلك مما غمنى .

اهتز كيان طونيو كله بالطرب والغبطة وهو يسمع هذا الكلام ، وأجاب بصوت يخلبه التأثير :

— فلنذهب اذن الى اسوار المدينة ثم أرافتك الى دارك ، لا تعارضنى ، فلا يضيرنى أن أعود وحدى الى دارى ، وفى المرة القادمة تصحبنى أنت اليها . ثم تكون أنت الذى يعود وحده لداره .

انه لا يؤمن كل الايمان بعذر صديقه ، وأحس بوضوح أن هانز أقل منه شغفا بهذه النزهة الى يخلو فيها أحدهما للآخر فلا دخيل بينهما ، ولكنه تبين أن صديقه آسف حقا على نسيائه وعده ، وأنه مهموم بأن ينال الصفح وأن ابعد شئ عن خاطره أن يؤخر لحظة هذا الصفح .

ذلك أن طونيو كان يميل بقلبه الى هانز ، ولطالما أضناه على يدبه العذاب ، فالذى هو بين الاثنين أشد ضعفا يكون هو الأشد هياما والأشد أذن عذابا ، ان ادراكه لهذه الحقيقة هو درس له ، ان فؤاد طونيو وهو ما يزال غضا فى مقتبل ربيعته قد لقنته الحياة عبرة هذا الدرس الواضح القاسى ، من طبعه — هكذا خلقه الله — أن يتنبه كل الانتباه ويدرك أتم ادراك مثل هذه العبر ، وأن يسجلها فى دخيلة نفسه واجدا فى ذلك شيئا من المتعة ، ولكن دون أن يجعل مسلكه يتأثر بها أو يستغلها لصالحه ونفعه ، وكان يجد كذلك ان خبرته بهذه العبر تفوق فى الخطر والمتعة كل علم يتجرعه فى المدرسة غصبا ، وكان يصرف معظم ساعات الدروس

طونيو كروج ١٠٢

تحت قبو « فصل » مبنى على الطراز القوطى ، يتأمل مبلغ تأثر نفسه بهذه العبر التى ينبته اليها ويلج فى تقصى كل ما توحى به من معان ، وكان انشغاله بهذه الأمور يمنحه رضا يماثل ذلك الرضا الذى يشعر به وهو يتجول فى حجرة نومه يمارس العزف على الكمان بالحن يرققها ما استطاع لكى يخالطها بخير نافورة فى حديقة داره ومياها تثب وهى تتراقص على فروع شجرة الجوز العتيقة .

النافورة المتوثبة شجرة الجوز العتيقة ، الكمان ، رؤية البحر من بعيد ، بحر البلطيق يترقب أمامه حين يقضى أجازته أن تداعبه أحلام الصيف — هذه هى الأشياء التى يهيم بها ويحب أن يعيش فى صحبتها وتتلون بها خوالجه ، أشياء تقع أسماؤها أجمل وقع فى الشعر ويتردد صداها كالنقر على الطبل فى القصائد التى يسطرها أحيانا ، الذنب ذنبه هو اذا كان لم يصن سر احتفاظه بكراسة يسجل فيها شعره فافتضح أمره عند أقرانه وكذلك عند أساتذته ، ولكن طونيو بن القنصل كروج لا يساوى نفسه بالحمقى والسوقة فيقلق لانفضاح سره ، انه يحتقر رأى أقرانه ورأى أساتذته على السواء .

أساتذته رجال أجلاف يتقزز منهم وتكشف بصيرته الشفافة النفاذة ما تنطوى عليه نفوسهم من علل ، بيد انه آمن هو نفسه أن قرض الشعر ادعاء لا يليق به ، ورضخ نوعا ما لرأى الذين يرون أن صرف الوقت فى نظم الشعر نشاز وانحراف ، ولكن رضوخه هذا لم يبلغ من القوة الى الحد الذى يمنعه من المضى فى هوايته .

واذا كان طونيو يضيع وقته هدرا فى البيت فانه كذلك فى المدرسة لا يمنح الدروس الا ذهننا متسكعا شاردا

- طونيو كروج ١٠٣

حتى ساء رأى أساتذته فيه ، تنطق كل التقارير التى
يحملها الى الدار بخيئه ، وكان أبوه — وهو رجل بدين
حسن اللبس يضع أبدا زهرة برية فى عروة سترته —
يتلقى هذه التقارير بغضب وغم شديدين ، أما أمه
الجميلة كونسويلو ذات الاسم الموسيقى الغريب والشعر
الفاحم والسحنة التى تتباين وسحنة بقية نساء المدينة ،
فقد أتى بهما أبوه من أقصى الجنوب — فكانت تتلقى
هذه التقارير دون أن تأبه لها أو تبالي بها .
يحب طونيو هذه الأم المتقدة العواطف ، الغامضة ،
المنطوية على نفسها ، البارعة فى العزف على البيانو
والمندولين ، ويرىحه منها . انها لا تغتم أو تقلق للشكوك
التي يثيرها تبالي طبعه عن بقية رفاقته ، بيد أنه كان
يفضل كثيرا غضب أبيه ، لأنه براه ادعى للكرامة والوقار
فهو لا يملك الا الاعتراف بأن أباه حين يزجره محق فى
مسلكه هذا ، على حين يجد فى زوجان أمه من المناعب
وقلة مبالاتها بالهموم شيئا من الاستهانة والطيش ،
يحدث نفسه أحيانا بأشياء تدور حول هذا المعنى ،
أفلا يكفينى ابتلاء أن أكون كما أنا ، سارح الذهن ،
مهموما بأشياء لا ينتبه لها غيرى ، واننى غير قادر
ولا راغب فى تبديل طبعى ، ألم يكن من الأصلح لى أن
أجد على الأقل من يقومنى ويعاقبنى عقابا شديدا بدلا
من أن تغمض عني العيون بين رنين القبلات والألحان ،
اننا لسنا من العجر الرجل ، بيوتهم عربات مطلية بلون
أخضر ، بل نحن أناس أهل جد ووقار .. الفئصل
كروج ، أسرة كروج ..

وكان يحدث نفسه مرارا : لماذا خلقتنى الله نشازا ،
بنى وبين الناس اختلاف ، وبينى وبين أساتذتى جفوة ،
أحس بين أقرانى أننى غريب عنهم ، ها هم تلاميذ

طونيو كروجر ١٠٤

المدرسة ، سواء فيهم من يحظى بالثناء عليه ، أو من يستقيم مرتاحا في قبضة الهوان ، ما لهم إلا يرون مثلى ما في نفوس أساتذتهم من عوج يثر الضحك والراء معا ، ما لهم لا ينظمون الأشعار ، أفكارهم أفكار سواد الناس ، لا يمتنع الجهر بها ، ما أعذب اطمئنان أفئدتهم حين يخالطون الناس فيجدون أنفسهم مع كل فرد منهم على وفاق أما أنا ... ما الذى دهانى ، ما هى علتى ، وما هو مالى ومصرى ..

وهذا الدأب من طونيو على تأمل دخيلة نفسه وهذا التفحص المديد منه لما عساه أن تكون روابطه بالحياة — كل ذلك له شأن كبير فى تعلقه برفيقه هانز هانسن ، انه متعلق به ، ولا لأنه وسيم ، ولأنه فوق ذلك رفيق مرح يهوى ركوب الخيل والألعاب الرياضية ، يعوم كابطال السباحة ويحظى باعجاب الناس ورضائهم ، يكن له أساتذته ودا من قلوب لا تملك لاتجاذبها بسحره الا أن ترق له وتحنو عليه ، ينادونه من قبيل الاعزاز باسمه الأول مجردا عن اللقب وبوالونه بالمتشجيع بثتى السبل ، يسعى رفقاؤه لاكتساب مونه ، ويستوقفه الرجال والنساء فى الطريق ويلمسون خصلة شعره الأشقر المفلقة من قلنسوته وهى فى لون أعواد الكتان ويقولون : صباح الخير على عيونك يا هانز ما أبهى خصلة شعرك ، هل أنت دائما أول الفصل . سلم لنا على بابا وماما يا حبيبى يا قمر يا حبلوه .

هكذا هانز هانسن وطونيو مذ عرفه يضنيه حين يلمح مطمح يخالطه حسد يحس بلهيه فى صدره ، ويقول فى سره : لو كانت لى عينان زرقاوان كعينيك ، ليت لى أن أعيش منلك فى وفاق وانسجام مع العالم كله ، انك تنفق كل وقتك بحصافة وتعقل ويحترمك

طونيو كروجر ١٠٥

جميع الناس ، اذا فرغت من أداء واجباتك المدرسية ذهبت للتدرب على ركوب الخيل أو شغلت نفسك بنشر الأشجار ، وحتى في اجازتك على شاطئ البحر تكرس وقتك للسباحة أو اللهو بركوب الزوارق ، بالمجذاف أو بالشراع ، على حين اظل أنا راقدًا على الرمل ، كسولًا عاطلاً ، مستغرقًا في أحلامي ، أثبت نظرتي لكى أرتب كيف نمسح يد خفية على وجه البحر فتتعاقب عليه ملامح متباينه ، حق لك أن نكون عينك في صفاء زرقته ، ليتنى كنت مثلك .

ولم يحاول طونيو أن يقلد هانز هانسن ، ولعله لم يأخذ مأخذ الجد تشوفه للشبه به ، وان نهلكته رغبة ممضة في أن يظفر وهو كما هو لا يتغير ، بانعطاف هانز نحوه ، ان طونيو يسعى لاكتساب وده ، على طريقته هو ، طريقة يلتزمها طبع متد ، عميق الجذور ، يسرف في انكار الذات وتشرب الألم والكآبة ، ولكنها كآبة أشد لسعا له وافتراسا من العواطف الجامحة المتوقعة من قلب فتى له مثل هيئته الغربية وطبعه الفريد .

ولم يذهب تودده لزميله سدى ، فان هانز أصبح واثقا أن طونيو أعلى مرتبة منه وأكثر قدرة بفضل طلاقة لسانه على التعبير بسهولة عن المعانى العويصة ، وأدرك حق الإدراك أن الود الذى يتلقاه ويحمده من صديقه قد بلغ من القوة والصفاء ذروة غير مألوفة ، وسر طونيو أن بادل هانز ودا بود ، ولكنه سرور يخالطه عذاب مبعثه الغيرة وخيبة الأمل وعقم كل جهد ببذل في الارتباط معا برباط روحى ، اذ من العجيب أن طونيو وهو يحسد صفات صديقه لا ينفك يجاهد لحمل هانز

طونيو كمروجر ١٠٦

على أن ينطبع بطبعه هو ويصبح على شاكلته ، انه
جهاد لا ينجح الا في لحظات عابرة ثم يجد أن هذا النجاح
ان هو الا السراب بعينه .

وسار الزميلان ، يتبادل أيديهما على قرطاس به
حلوى اشترياها من بقال في شارع الطاحون ، وقال
طونيو :

— اسمع ، فرغت من قراءة كتاب جدير بالاعجاب ،
كتاب بديع ، ينبغي لك أن تقرأه ، يا هانز ، انه مسرحية
(دون كارلوس) من تأليف شيللر . ان شئت أعرتك
لك ..

أجابه هانز :

— لا .. لا .. دعنى منه ، يا طونى ، مثل هذا
الكتاب لا يشوقنى . اننى أفضل ما لدى من كتب مؤلفة
عن الخيل ، اؤكد لك انها تضم صورا بديعة سأطلعك
عليها حين تأتى لزيارتى ، صور رسمت خطفا للخيل
وهى تجرى ، فيها تثبيت لهشة عدوها وخببها وقفزها ،
أوضاع مختلفة لا تلاحظها العين لأن الخيل تمرق أمامها
بسرعة . أجابه طونيو مجابلا له :

— كل الأوضاع ؟ يا له من شيء بديع ولكن لنعد
الى دون كارلوس ، انها مسرحية تفوق كل خيال ، سترى
فيها كلاما يبلغ من جماله أن يزلزل قلبك ويرجه رجا ،
كانما فاجأك شيء ينفجر .

أجاب هانز :

— شيء ينفجر ، ماذا تعنى ؟

— خذ مثلا حين تصف المسرحية كيف أجهدش الملك
بالبكاء حين علم أن الماركيز قد جأته ، ولكن الماركيز لم
بخنه الا بسبب حبه للامير ، فرضى أن يفندى هذا الأمير
بنفسه . أنفهم ؟ وعلا من داخل خلوة الملك صوت نحيبه

طونيو كروج ١٠٧

حتى سمعه رجال الحاشية من وراء الأبواب وأخذوا يتهايمسون : انه يبكي ، الملك يبكي ، أسقط في يدهم وتملكهم الهلع ، فالملك معروف بصلابته وقسوته الفظيعة ولكن لا عجب أن يبكي الملك . اننى أرثى له أكثر مما أرثى للأمير والماركيز معا ، فقد كان دائما يعانى عذاب الوحدة والحرمان من الحب ، فلما ظن أنه وجد انسانا يستطيع أن يتعلق به اذا بهذا الانسان يغدر به ويخونه . نظر هانز خلسة الى وجه صديقه فوجده ينطق بأحاسيس أثارت اهتمامه بمسرحية شيللر ، فاذا به يضع ذراعه في ذراع طونيو ويقول له :

— وكيف خان هذا الرجل يا طونيو ؟

وبدا طونيو بشرح له مستعينا بحركات من يديه أيضا كيف كانت الخيانة ، فاذا بهانز يصيح فجأة :

— ها هو ذا ابروين ايمرتال .

فصمت طونيو ، فليذهب الى الجحيم ويغور في داهية ابروين هذا ، من أين طلع علينا لبزعجنا ، عسى الا ينضم الينا فيصدع رأسنا طول الطريق بحديثه عن ركوب الخيل .

ذلك أن ابروين يتلقى هو أيضا دروسا في ركوب الخيل ، هو ابن مدير المصرف ويسكن حيث لقاه خارج المدينة ، وكان قد تخفف من مخلاته وأقبل عليهما بساقيه المقوستين وعينيه المشدودتين الى الصدغين ، حياه هانز وقال له :

— اننى أتمشى مع كروج ، نقرض .

فأجابه ابروين :

— كنت في طريقى الى المدينة لأمر كلفت به ، ولكنى سأصحبكما قليلا ، ماذا فى القرطاس ؟ حلوى من عصير الفاكهة ! حقا ! شكرا ، أحب أن أذوقها أيضا ، أسمع

طونيو كروج ١٠٨

يا هانز ، لا تنس موعد الدرس غدا (ها هو ذا يريد أن يتحدث عن ركوب الخيل !) وقال هانز :
— أنتى فرح لأنهم سيعطوننى حذاء برقبة عالية لقاء تفوقى على زملائى فى التدريبات .

وقال إيمرتال وعيناه لا تريدان عن شقين ضيقين يلمعان :

— وأنت يا كروج ، ألا تتلقى أيضا دروسا فى ركوب الخيل . .

— لا . .

نطقى بها طونيو مغمغا لا يكاد يبين .
وقال هانز هانسن :

— ينبغي يا كروج أن تطلب الى أبيك أن يلحقك بهذه الدروس .
— سأفعل .

حز فى قلبه لحظة أن هانز ناداه بلقب الأسرة لا باسمه الأول . كما كان ينمى دلالة على رفع الكلفة ، وأحس هانز ولا ريب بشعور صديقه فقال له موضحا .
— ناديك بلقب كروج لأن اسمك غريب شاذ كما

تعلم أنتى لا أحب هذا الاسم أبدا ، طونيو ، ليس هذا باسم ، والذنب فيه ليس ذنبك فلا حيلة لك فيه .
وقال إيمرتال وهو يتخذ سمة من يريد التوفيق بينهما :

— أظن أنهم أطلقوا عليك هذا الاسم لأن له جرسا غربيا وفريدا .

وسرت الرعدة فى شفتى طونيو ولكنه تمالك نفسه وقال :

— نعم ، انه اسم سخيف ، وكنت أفضل عليه

طونيو كروج ١٠٦

— صدقاني — اسما مثل هنرى أو غليوم ، ولكنى سميت به تبعا لخال لى ، اسمه أنطونيو ، اذ أن أمى كما تعلمان ليست من أهل هذه البلاد .

ثم لاذ بالصمت وترك زميله يخوضان فى الحديث عن الخيل وركوبها ، وكان هانز قد وضع ذراعه تحت ذراع ايمرتال يحدنه باهتمام وحماس ، هيهات أن يلذ لهما حديث عن دون كارلوس ، وأحس طونيو بالدموع تدغدغ خياشيمه ، وبذل جهدا كبيرا للتحكم فى نغسه وهى لا تنفك عن الارتعاش .

ان هانز لا يحب فيه اسمه ، ما العمل ؟ حقا ان اسم هانز واسم ايروين شائعان لا يثيران الانتباه والاستغراب ، أما طونيو فهذا اسم شاذ عجيب ، نعم ، ان طونيو يعلم أنه سواء أراد أم لم يرد ، مخلوق شاذ من جميع الوجوه ، يباين الطراز المألوف من أولاد الناس الطيبين ، مع أنه ليس من سلالة غجر رحل ، مسكنهم عربية خضراء ، انه ابن القنصل كروج ، من أسرة عريقة ، ولكن لماذا يناديه هانز اذا انفردا معا باسم طونيو ثم يعدل عن ذلك حين ينضم اليهما ثالث ، هل يخجل منه ؟ انه يمنح طونيو أحيانا اهتمامه ووده ، ألم يضع منذ لحظة ذراعه فى ذراعه ويسأله (وكيف خانته هذا الرجل يا طونيو) ومع ذلك ما أن قدم عليهما ايمرتال حتى تنهد مرتاحا وتخلّى عنه وتبرّع بتجريح اسمه غير المألوف ، ما أشد الألم الذى يبعثه ادراك هذه الأشياء بوضوح ، يعلم أن هانز يميل اليه بود حين ينفردان ، ولكن اذا قطع خلوتهما نال خجل منه وضحى به ، ، وارتد طونيو من جديد الى وحدته ، يفكر فى الملك فيليب ، الملك الذى بكى .

وقال ايروين ايمرنال :

طونيو كروجر ١١٠

— ياه ، ينبغي أن انصرف فوراً ، وداعاً لكما
وشكراً على الحلوى .

وحرك ساقيه المقوستين وابتعد جرياً فوق حافة
الطريق المرتفعة . وقال هانز بنعمة الوثوق :

— اننى أحب ايمرتال .
كانت له طبائع الصبى المدلل الواصل بنفسه في
اعلانه لما يحب وما يكره ، كأنه تفضل منه أن يوزع
الحظوظ .

ثم استطرد هانز يتكلم عن دروس ركوب الخيل
لانه كان اندفع في هذا الحديث . وكانا على كل حال
قد اقتريا من منزل هانز ، ذلك أن طريق الأسوار ليس
مفترقا في الطول ، أحكم الصبيان تثبت قلنسوتيها
وملا برأسهما يغالبان الرياح العاتية الرطبة وهى
تصلصل وتئن بين غصون الأشجار المعارية ، وظل
هانز يتكلم وطونيو لا يرد عليه الا بجهد بأن يقول له
بين الحين والحين (نعم) أو « حقا » لا يأبه أن وضع
هانز في حدة حديثه زراعه في زراعه ، فلم يكن مايفعله
سوى حركة يتذرع بها لاعلان رغبته في مصالحته فهى
لا تعنى عند طونيو شيئا .

وخلفا وراءهما طريق الأسوار غير بعيد من المحطة
ورأى الاثنان قطارا يمر وهو يلهث وينتزع سرعته
بعناء ، وأخذوا من قبيل التسلية يعدان كم عربة تجرها
القاطرة ، ولوحا بأيديهما الى الرجل الجالس في
مؤخرة السبنسة وهو غارق في معطف من الفرو .

ووفقا أمام دار هانز في ميدان الزيزفون ورغب
هانز أن يرى صديقه وسيلة حديثة اكتشفها للهو
والنسلية ، فتسلق الباب الحديدى وقام بتحريكه يمينا
ويسارا حتى علا صريه . ثم ودع كل منهما صاحبه

طونيو كروجر ١١١

وقال هانز :

— ينبغي أن ادخل الآن ، الى اللقاء يا طونيو ،
في المرة القادمة سأكون أنا من يصحب الآخر الى
داره ، أعدك بذلك . أجابه طونيو .

— الى اللقاء يا هانز ، نزهتنا كانت جميلة .
وشد كل منهما على يد زميله بيد مبلله ، لطحها
لون الصدا من أثر عبثهما بالباب الحديدى ، ولكن
هانز حين التقت عيناه بعينى طونيو بدا كأن وجهه
تعلوه مسحة من الندم ، وقال :

— سأقرأ قريبا مسرحية (دون كارلوس) ان قصة
الملك المنفرد فى خلوته لابد أن تكون شيقة .

ثم وضع حقيبته تحت نراعه ومضى يشق الحديقة
جريا ، وقبل أن يختفى داخل الدار التفت ثانية الى
طونيو ولوح له بيده .

وانصرف طونيو كروجر وهو يتالق بشرا ، يمشى
فى خفة كأنه يطير بجناحين ، تدفعه الرياح الى الأمام ،
ولكن ليس من دفعهما وحده أن تتابعته خطاياه
بسهولة .

ان هانز سيقرا (دون كارلوس) وهكذا سيملكان
شيئا لا يستطيع أيمرتال ولا أحد غيره أن يشاركهما
فى الحديث عنه ، ما أجمل هذا الوفاق بينهما ، ومن
يدرى ، لعله يستطيع أن يحمل هانز على أن ينظم
الشعر مثله ، ولكن لا ، لا ، أنه لا يريد بذل هذه
المحاولة ، ان هانز ينبغي ألا يصبح تواما لطونيو ،
بل ينبغي أن يبقى كما هو بصفاته كلها ، بفروسيته
وفتوته ، محفظا بخلائقه التى من أجلها تحبه الناس ،
ويحبها طونيو أكثر منهم ، ولا ضرر على هانز أن يقرأ
(دون كارلوس) .

طونيو كروج ١١٢

ودخل طونيو المدينة من بوابة عتيقة واطئة في
عرض أسوارها الغليظة ، وسار بحذاء الميناء وبين
المنازل ذوات القمم المثلثة الأضلاع يصعد بجهد علوة
شوارع مبللة تصفر فيها الرياح حتى بلغ منزل أسرته .
ها هو ذا يشعر أن قلبه تدب فيه الحياة ويمتلئ
بأمانى موجهة وتحسر مكتئب ومدر قليل من التعالي
والاحتقار ، وفيض كبير من الطهر والعفاف .

الفصل الثانى

انجه انجبور هولم بنت الطبيب هولم القاطن فى
ميدان السوق الذى تتوسطه نافورة مديبة مزخرفة
وفق الطراز القوطى - كانت هذه الفتاة الشقراء هى
التي احبها طونيو كروجر حين بلغ السادسة عشرة
من عمره .

كيف حدث هذا ؟ أنه رآها الف مرة دون ان تستأثر -
بالتشاته ، ولكنه شاهدها ذات مساء يجلبها نوع من
الاشراق ، تلفت رأسها الى جنب وهى تتحدث الى
صديقة لها وتضحك ضحكتها التى تنم عن النزق
والدلال ، ولحها نمد الى قذالها يدا هى يد الفتاة
الغريرة لا هى جد جميلة ولا هى جد رشيقة ، على
حين انحسر كمها الأبيض المهفف وبان كوعها ،
وسمعا تلفظ بلهجة التأكيد وبصوت منغم دافئ. كلمة
عابرة وسط حديثها فامتلاً قلبه من أجلها بفتنة تفوق
فى عنفوانها ما كان يحس به من قبل وهو ما زال صبيا
صغيرا حين كان يرنو الى هانز هانسن .

حمل لها ذلك المساء صورة انطبعت فى قلبه لصفيرة
الشعر الاشقر الغليظة ، لعينين لوزيتين زرقاوين
ضاحكتين ، لحدبة هيئة لأنف يعلوه نمش خفيف ، وظل
ليلته ساهرا لا يقدر على النوم لأن نغمة صوتها لا تفارق
أذنه وحاول وهو واجف القلب ان يقلد همسا لهجتها
وهى تؤكد تلك الكلمة العابرة فى حديثها لصاحبها .

طونيو كروج ١١٤ .

افبعد هذا العناء دليل على أن الذى يعهده فى نفسه
هو الحب بعينه .

يعلم أن الحب لن يمنحه الا أحمالا من الضنى
والعذاب والذل ، وأنه يحطم النفس ويملا القلب
بالأنثى دون أن يترك له ما يحتاجه من الهدوء
وراحة البال لى يتأمل هذه الأنثى حتى تتضح له
عالمها وحتى يخلق منها فى ظل السكينة كيانا متكامل
فهو وقابلا للتعبير عنه بدقة ووضوح ، ومع ذلك
تلقى الحب وهو جذل به واستسلم له كل الاستسلام ،
يغذيه بكل طاقة لروحه ، أنه يحرص عليه وينعم به ،
هو مدرك أن الحب سيضفى على حياته ثراء وتوهجا
واقادا وهذا هو ما يصبو اليه .

وهكذا وقع طونيو فى غرام أنجه أنجبور المرحلة فى
صالون السيدة هوستيد ، — زوجة القنصل — وكان
خاليا من أوائه لأن التوبة كانت عليها تلك الليلة فى
استضافة دروس الرقص ، وهى دروس خاصة
لا ينضم اليها الا أبناء أرقى الأسر يجتمعون فى منزل
بعد آخر بالتناوب لتلقى هذه الدروس . وكان الأستاذ
كناك — معلم الرقص — يأتى من هامبورج كل أسبوع
مرة لتلقينهم هذه الدروس .

ان اسمه كاملا هو فرانسوا كناك ، ولكن حق
معرفته ان تراه بشحمه ولحمه ، يواجه تلاميذه قائلا
بلغة فرنسية سقيمة النطق :

— لى الشرف أن أمثل أمامكم واسمحوا لى ان
أعرفكم بنفسى ..

ثم يستطرد بالألمانية :

— النطق بهذه العبارة ليس وقته عند احناء الراس
أمام من تتقدمون اليه بل فور رفعها بعد احنائها ويكون

نطقها بصوت متمد ولكن لابد أن تكون الألفاظ واضحة كل الوضوح ، أن التزامكم بتقديم أنفسكم باللغة الفرنسية لا يحدث كل يوم ولكن إذا أتيح لكم أن تفعلوا ذلك بلغة سليمة متقنة فاطمنوا الى صواب تصرفكم كما لو كنتم تتكلمون بالالمانية .

يرتدى الأستاذ كذاك (رنجوت) من قماش أسود براق مفصل على جسمه البدين أحسن تفصيل ، ويهبط كل ساق في سرواله فتبتنى له حافة متهدلة على خذائه المكشوف تزيينه أنشودة من حرير ، عيناه العسلتان تجولان فيما حوله يملأها الاحساس بجمالها سعادة واستكفاء يورث صاحبه الملل ، انه يسحق تلاميذه سحقا بفرط تأنقه وضبطه لحركته ووثوقه بنفسه ، فهو يتقدم بخطى متوثبة متموجة متزنة معا — خطى لا يألؤها إلا بلاط الملوك — ويتجه الى ربة الدار وينحنى أمامها ويصبر الى أن تمد له يدها فإذا فعلت تمت بكلمة شكر وتراجع بخطوة رشيقة ودار الى جنب معتمدا على طرف من مشط قدمه اليسرى وابتعد وهو يهز وركيه ، من دروسه قوله لتلاميذه :

إذا شاء أحدكم الانصراف عن اجتماع فعليه أن يتراجع القهقري نحو الباب ، وهو ينحنى مرارا ، وإذا شاء تقرب مقعد اليه فينبغى ألا يحمله من إحدى قوائمه أو يجرجره على أرض الصالون ، بل يتناوله بخفة من مسنده ويضعه برفق حيثما يرغب ، وينبغى لأحدكم ألا يجلس شابكا يديه على بطنه عاقدا لسانه كالحجر بين شدقيه .. وكان إذا حدث لك أن هفوت وفعلت ذلك فان الأستاذ كذاك لا يتورع من الاسراع فورا الى تقليدك بسخرية تبعث فيك الخجل واستقباح فعلك الى نهاية عمرك .

تلك هي دروس حسن السلوك أما عن الرقص فان
الاستاذ تجلى له فيه براعة اتم ان جاز القول بأن في
براعته زيادة لمستزيد ، تتلألا في الصالون العريان
أضواء الثريات وشموع المدفأة ، وعلى الأرض نثار
من مسحوق التلك ، ويصطف التلاميذ وهم صامتون
في نصف دائرة ، وفي الحجرة المجاورة تجلس الإهات
والعمات والخالات على مقاعد مكسية بقطيفة ذات
وبر ، يرقبن من خلال نظاراتهن المقربة كيف يقف
الاستاذ كذاك مائلا الى الأمام ممسكا من الجانبين طرف
الردنجوت بأصبعين ، محركا ساقيه بحركات رقصة
المازوركا أما اذا أراد أن يبهر الجميع فانه يشب في
الهواء فجأة وبلا داع هازا ساقيه ضاربا احدهما
بالأخرى في سرعة فائقة مؤديا بذلك حركة عسيرة
من حركات الرقص ثم يسقط على الأرض فوق قدميه
في دوى مكتوم وان لم يبق في الحجرة شيء الا ارتج
واهتز ، يقول طونيو في سره : ياله من العبان ، ياله
من قرد ، ياله من مسخ لا مثيل له ، ولكنه يلمح انجه
هولم المرحه وهى مستغرقة في تتبع الاستاذ كذاك
بابتسامة تعلوها الاعجاب ، لم يكن من أجل هذا وحده
ان أحس حقا باعجاب لما يديه الاستاذ من تحكم رائع
في حركته ، بل هو مسحوق أيضا بنظرته الهادئة
المطمئنة اذ انها لا تتغلغل فتسبر غور الأشياء حتى
يتجلى باطنها المعقد الباعث على الشجن ، لا علم
لعينيه بشيء في الوجود الا بأنهما عسليتان وجميلتان ،
هذا هو سر خيالاته واعتداده بنفسه ، حقا انه من
الحق والصغار والهوان أن يمشى أحدهما مشيته ،
ولكن الاستاذ مع ذلك محبوب لأن له فتنة طاغية ، ان
طونيو يفهم انجه الشقراء الحلوة ويقدرها حين تنظر

طونيو كروجر ١١٧

الى الأستاذ كما تفعل ، أما هو ... هل سيتأتى له في يوم أن ينظر الى فتاة مثل هذه النظرة .

نعم ، حدث له ذلك ، انها مجدلبنا فيرميهر بنت المحامي فيرميهرن ، وهى فتاة وديعة لها عبنان واسعتان سوداوان ، تنطلقان بالصدق والجد وحب التعاطف ، انه يحدث لها كثيرا أن تتعثر قدمها وهى ترقص فتكاد تسقط على الأرض يراها حين يأتى دور الرقصة التى يؤذن فيها للفناة أن تختار فتاتها لا يقع اختيارها الا عليه ، هى تعلم أنه ينظم الشعر وقد طلبت اليه مرتين أن يطلعها على قصائده ، كم من مرة أمالت رأسها لتنظر اليه وهى واقفة على بعد منه ، ولكن لا شئ من هذا بهمه ، انه يحب انجه هولم ، انجه الشقراء ، انجه المرحاة التى تستسخره ولا ريب لأنه يقرض الشعر ، انه يتأملها ، يتأمل عينيها اللوزيتين الناطقتين بالغبطة والسعادة والتهكم ، يحرق قلبه ويعذبه في الم قاس طموح وحسرة من أنه مطرود من محضرها ، تفضى عليه أن يعيش أبدا مجهولا منها .

وارتفع صوت الأستاذ كذاك قائلا بنغمة هيهات لأحد أن يقلدها :

— الزميلان الاولان ، الى الامام !

لقد بدأ درس رقصة الرباعيات ، ما كان أشد جزع طونيو حين وجد نفسه في رباعى واحد مع انجه هولم ، انه يتجنبها جهد طاقته ولكن الرقصة ألزمته أن يبقى بجوارها طول الوقت ، يكبح عنيه عن التطلع اليها ومع ذلك فان نظراته لا تقارنها هاهى ذى الآن تتقدم ، يقودها شاب أحمر الشعر هو

طونيو كروجر ١١٨

فرناند ماتيسين تخطو في خفة كأنها طيف وتسرع الى موقفها الذى تستعد عنده لبدء الرقص وهى تطوح ضفيريتهما الى الوراء ، ثم تقف وهى تسترد أنفاسها أمامه هو وجها لوجه ، وبدأ ضارب البيانو هنزلمان — وغرق بين الضرب والغزف ! — يضع يدين بارزتي العظام فوق أصابع البيانو ويلمسها ، وبدأت رقصة الرباعيات .

وأخضت أنجه هولم وهى تواجهه تنثنى يمنا ويسرة ، الى الأمام وإلى الخلف ، وتخطو وتدور ، يسطع عطر من شعرها أو من ثوبها الأبيض الرقيق ، ينشمه كلما دنت منه فلا يزيد امتلاء عينيه بها الا اضطرابا فوق اضطراب يحدث نفسه سرا : أنجه ، ياحلوتى الغالية ، انى أحبك ، ييث في هذه الكلمات كل اله من أنها منصرفه الى الرقص بحماس وغبطة دون أن تلقى اليه بالا ، واستعادت ذاكرته قصيدة للشاعر ستورم يقول فيها (بودى أنا أن أخلد الى النوم ، أما أنت فحلال لك الرقص) يتعذب طونيو لتلك الحماسة المزرية التى تقضى عليه بأن يمتن حبه بشيء تافه سخيف مثل الرقص .

وصاح الأستاذ كذاك معلنا دورة جديدة للرقصة .
— الزميلان الأولان .. الى الأمام !

جاء دور طونيو وزميلته أنجه ، أدى لها التحية بأن أحنى رأسه أمامها وهو متجهم ، ثم ارتبك حين لمست يده يدها ولم يحسن أداء الرقصة فقام بحركة ينبغي أن تؤديها فتاة لا فتى .

انطلقت الوشوشة والضحكات من حوله وصاح الأستاذ كذاك (أبطلوا الرقص .. ! الى الورا

طونيو كروجر ١١٩

يا آنسة كروجر ويلي عليك ، لقد فهم الجميع الا انت ، الى الورا ، الى الورا ، ثم أخرج من جيبه منديلا أصفر وأخذ يهزه في وجه طونيو كأنه بهش عليه لكي يعود الى مكانه المرسوم له .

يا آنسة كروجر ! هكذا ناداه الأستاذ هزءا به ، لم يبق أحد لم يضحك ، الفتيان والفتيات ، والسيدات في الحجرة المجاورة ، ذلك أن الأستاذ كذاك قلب هذه الهفوة الصغيرة الى مهزلة تضحك التلكى ، وساد الجميع جو من المرح كأنهم في مسرح هزلى ، وكان العازف هانزلمان هو وحده الذى بقى جامد الوجه شأن الأجير الذى لا يعنيه الا أداء عمله والقيام بواجبه ، ولأنه أيضا ألف من الأستاذ كذاك مثل هذه الغضبات العارمة ، وظل ينتظر إشارة ليبدأ العزف من جديد .

وبدأت رقصة أخرى ، ثم تلتها فترة استراحة ودخلت الخادمة تهتز فوق يديها وتنصطك صفوف أقدام ملأى بمشروبات مرطبة ، وتبعثها الطباخة مزودة بالفطائر ، أما طونيو فقد انسحب خلسة من الصالون واتجه الى الدهليز ووقف عاقدا يديه وراء ظهره أمام نافذة مغلقة دون أن يقدر بأنه لن يرى شيئا من خلال نافذة مغلقة وأنه من الحمق أن يظل هكذا واقفا أمامها زاعما أنه يتأمل شيئا وراءها ، أن الذى يتأمله حقا هو دخيلة نفسه ، وهى مفعمة بالغم والتحسر .. لماذا ، لماذا سعت به قدمه الى هنا ، لماذا لم يبق بحجرتيه بجوار النافذة يقرأ فى كتاب ويهد طرفه بين آونة وأخرى الى الحديقة وقد جللها الظلام تنبعث من خلاله شخصخة كثيفة لشجرة الجوز العتيقة ، اليس هذا هو الاخلق به والاقترب الى طبعه ، حلال للآخرين أن يرقصوا بكل حماس واندفاع دون أن تتعثر لهم

طونيو كروجر ١٢٠

قدم أو تزل لهم خطوة ولكن لا .. لا .. ان مكانه هنا حيث يحس أنفاس انجه رغم أنه يتفرد بنفسه بعيداً عنها ، يحاول من خلال ضجة الأحاديث والضحكات واصطكاك الأكواب أن يلتقط صوتها الذي يتوهج فيه نفاة الحياة ، انجه ، ما أجمل عينيك اللوزيتين الزرقاوين الضاحكتين ، انجه أيتها الفتاة الشقراء ، لكى يصبح انسان مثلك وسيما مليحاً وضاح الجبين مرحا بسام الثغر ينبغي له الا يكون قلبه قد هصره الشجن وهو يهتز لروائع الشعر ، ان لا يمزقه عذاب الشعر بالعجز عن ابداع نظم هذه الروائع ، هذه هى نكبتة .

كان ينبغي لها أن تلحق به ، أن تتبته أنه فارق الجمع وتحس بلواعج قلبه ، أن تتبته خلسة وتلحقه وتقف بجانبه وتضع يده على كتفه وتقول له، تعال ، عد الينا ، اطمئن ، اننى أحبك ، فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ يتسمع طونيو ما يدور وراءه ، ينتظر فى لهفة لا تسوغ لها أن تأتى اليه ، ولكنها لم تفعل ، ان هذه الأشياء لا تحدث فى هذه الدنيا .

هل ضحكت منه هى أيضا كما ضحك الآخرون ، نعم ، انها ضحكت ، عن طيب خاطر ، وقلب منشرج ، غير متحرجة ولا مستائية ، ولكنه لا يصدق أنها ضحكت منه ، اعلاء لحبه لها وحفاظا على كبريائه ، ومع ذلك فانه لم يزل زلته الا لأنه لم يكن مالكا لتمام وعيه من فرط انبهاره بجمالها واشراقها ، وماذا جرى حتى ينفجر من الضحك ، ولماذا تصبح الحبة قبة ، صبرا ، سيأتى اليوم الذى يكون فيه عن الضحك لم تقبل اخدى الصحف أخيرا قصيدة من نظمه ولم تردده اليه ، لا يطعن فى ذلك ان قصيدته لم تنشر لأن الصحيفة

طونيو كروجر ١٢١

توقفت عن الصدور سيأتى يوم تواتيه فبه الشهرة
فمنشر كل قصائده وتستيقظ له انجه هولم ، ولكن
هيهات ، قد يحدث هذا لماجدلينا فيرميهرن النى تتعثر
وتتهادى وهى ترقص ، ليس هذا شأن انجه هولم
المرحة ذات العينين الزرقاوين ... اذن ما جدوى
كده .. ؟

انقبض قلبه لهذا خاطر وهصره الالم .

فمن اشد العذاب ان تحس في نفسك قوى كريمة
سخية متوئبة وهى معرقلة ومشلولة في قبضة الاكتاب
وانت تعلم في الوقت ذاته ان الذين يسمو اليهم
طموحك المتقد لا يتلقهم في شئ تجاهلهم لك ، انه وان
كان وحيدا مقضيا تحطم امله غيرة وشعور بالضياح
يتظاهر في الهه بأنه يتعالى عليها ويحتقرها ، الا انه
رغم ذلك سعيد ، اذ ان قلبه آتئذ تنقد فيه الحياة ،
قلبي يخفق بطرب واسى لك يا انجه هولم ، ان هذه
الفتاة الشقراء ، الصافية الطبع كجدول صفيح رقراق ،
هذه الفتاة النزقة ، الخفيفة القدر ، مثلها عشرات ،
هى النى تعانق روحه شخصا ، ويتنكر لنفسه من
أجلها وهو راض سعيد .

لجأ أكثر من مرة الى الوقوف في ركن منعزل ووجه
ينبىء عن التهاب دمه ، نصل اليه خافضة انغام
الموسيقى وعطور الزهور واصطكاك الأقداح ، يسعى
لكى يلتقط من وسط ضجة الحفل تأقيه من بعيد صوتك
انت ، اسمعه وأنا معذب بك ومع ذلك فأنى جد سعيد
كم يستبد به الحق حين يتيسر له التحدث الى
ماجدلينا فيرميهرن ربة الزلات والعنرات فيلقى عندها
فهما وبشاشة ووجها ضاحكا دون أن تتحول في الوقت

طونيو كروج ١٢٢

ذاته عن اخذ الأمور مأخذ الجد كما يفعل هو ، على حين أن الشقراء انجته حتى حين يجلس بجوارها تبدو له بعيدة عنه ، غريبة ، غامضة ، مذهبته في الكلام ليس مذهبها ولا لغته لغتها ، ومع ذلك فهو في نشوة وسعادة . يقول لنفسه : ليس هناءى الانسان ان يكون محبوبا ، فهذه سعادة مبعثها الغرور الذى لا يسلم من الشيع والسأم . اما الهناء كله فهو ان تكون انت المحب ، وأن يتصيد بين الحين والآخر لحظات عابرة يخيل لك فيها أنك محبوب ممن تحبه .

وسجل طونيو كل هذه الخواطر في ذهنه وتتبع دلالتها وأحس بها في أعماق روحه . وأخذ يحدث نفسه : الوفاء ! اننى يا أنجه ياق على الوفاء لك الى آخر أيامى ، تلك هى نيته الطيبة ، ومع ذلك يهمس له صوت ، تلفه الخشية والاسى ، ما بالك قد نسيت هانزهانسن مع أنك كنت تألفه وتسعد بصحبته ، كان أقرب الخلان اليك وأعزهم عندك ، فاذا بك قد نسيت ، ومما يزيد الأمر قبحا وفجاعة أن هذا الهمس الذى يوسوس له بشيء من الخبث قد صدق ، فقد عمل مرور الزمن عمله ، واتفق طونيو ذات يوم فاذا به لا يجد في نفسه هذا الاقبال على أن يضحي بروحه بلا شرط أو قيد ارضاء لانجته المرحه ، اذ أحس في قلبه بالرغبة والقدرة على أن يحقق في غد ويوسائله هو وحده ، مستقلا بأرائته ، غير مرتبط بأحد غيره ، اعمالا رائعة غير قليلة ، ولكنه كان مع ذلك يطوف بمعبد حبه الذى تتقد جذوته في قلبه بطهارة وبراءة يركع لها ويؤجج شعلتها بما وسعه من حيلة ، لانه يريد أن يثبت على وفائه ، ومع ذلك ما مر وقت طويل

طونيو كروجز ١٢٢

حتى انطفأت هذه الجذوة ، خلصة وبلا ضجة أو
ثورة ، غير أن طونيو ظل مع ذلك زمنا يتأمل معبد
حبه الذي انطفأت جذوته ، يتنازع شعور بالدهشة
وشعور بخيبة الأمل من أن الوفاء محال في هذه
الأرض. ثم هز كتفيه مستسلما ومضى لحال سبيله .

الفصل الثالث

يهل طونيو على الذرب الذي ينبغي له أن يسلكه
فيسير فيه بخطى بليدة متراوحة ، وهو يصفر بفمه
وينظر الى بعيد مهिला براسه الى جنب ، فاذا انحرف
عنه الى غيره فلأن بعض الناس ليس لهم طريق
مرسوم .

وكان اذا سئل عن العمل الذي يزعم أن يتولاه
ويعتمد عليه مستقبلا أدلى باجابات متباينة ، اذ كان
من عادته أن يقول انه يعتقد — بضمان من وحى
قلبه — أنه مستنيط لقدرات تعينه على اقتحام أكثر من
مسلك واحد وذلك دون أن يفارقه وعى دفين بأن هذه
المسالك كلها ما هى الا أحلام مستحيلة التحقق .

وحتى من قبل أن يغادر المدينة المحشور داخل
أسوارها وهى مسقط رأسه كانت السلاسل والروابط
التي تشده اليها قد تراخت برفق وعلى مهل ، فان
أسرة كروجر العتيقة تفتتت مرة بعد أخرى وتفرقت ،
في تقدير بعض الناس ان غرابة طبعه كانت نذيرا
بالحال الذي آلت اليه أسرته ، جذته لأبيه — عميدة
الأسرة — ماتت ، وبعد قليل لحقها أبوه ، هذا الرجل
الطويل القامة ، المتفكر ، الأنيق اللبس ، الذى لا تخلو
عروة سترته من زهرة برية وبيعت دار الأسرة
الفسيحة وانطوت صفحاتها وأغلق المتجر أبوابه وانقطع
عمله ، أما أم طونيو ، أمه الجميلة المتقدمة العواطف ،

طونيو كروجر ١٢٥

البارعة في العزف على البيانو والماندولين والتي كانت لا تبالي اقل مبالاة لشيء يحدث فقد وجدت لها زوجا ما أن مضى عام واحد على ترملها ، بعلمها الجديد رجل موسيقى امام في العزف وله اسم ايطالى ومضت ترافقه في رحلاته الى بلاد بعيدة مشمسة ، وقد رأى طونيو كروجر في مسلك امه شيئا من الطيش والنزق ولكن هل كان في مقدوره او في اختصاصه أن يردها الى الرشيد والصواب ، انه انصرف الى نظم الشعر ولا يقدر حتى أن يبين ويفصح عن المسلك الذي سيختاره لحياته .

هجر مدينته أم الشوارع المتعرجة ، مسقط رأسه ، بمنازلها ذات القمم المثلثة الاضلاع والتي يلفها عويل رياح رطبة ، هجر النافورة وشجرة الجوز العتيقة وخلان صباه ، اليهم كان يفضى بأسراره ، هجر البحر الذي كان يهيم به أشد الهيام دون أن يأنس في نفسه شيئا من حزن ، ذلك انه كان قد تضنح عمره ورشاده ووعيه بنفسه ، فاستعاض له هذه بهذه المعيشة الراكدة الخاملة التي احتبسته اسيرا في قبضتها ووهب نفسه وكرسها للقيم التي بدت له أسمى شيء على الارض ، يحس أن الاختيار قد وقع عليه لكي يخلص لها ، وهي التي تبشره بالمجد والتشهرة ، قيم الفكر والتعبير التي تبسط جناحيها بابتسام على سرائر البشر ووجدانهم منح نفسه لهذه القيم بكل حماس شبابيه فكافاته بكل ما تقدر عليه من عطاء وأن اجتبت منه بلا رحمة في مقابل ذلك ضريبتها التي لا تتنازل عنها ، هذه القيم هي التي جعلت نظرتة ترداد حدة ونفاذا ، اسمعته نطق المطامع التي تعتلج في الصدور ، كشفت له ارواح الناس ، وروحه هو ، كفلت له

طونيوكروج ١٢٦

بصرة تنير له الأعماق وخفايا النوازع والكلام ، في رأى الا البلاء والحماقة ، اذ الحماقة والبلاء .
 حينئذ ألقى به العذاب وكبرياء التفرد وفتنة تملك الإدراك الى أحضان وحدة مريرة اذ كان من المستحيل عليه أن يخالط أناسا طبعهم خام ونفوسهم لاهية وبلا ملامح ، ينفرون من هذا السر الغامض الذى يطالعهم به اشراق جبهته ، وفي مقابل وحدته أصبح يجد متعة تزداد لذتها مع الأيام فى نبيع اللفظ وتأمل الشكل اذ كان من عادته أن يقول — كما خبر ذلك فى نفسه من قبل — ان ادراك المرء لنفسه يقوده حتما الى الكتابة اذا لم يسعفه ما يهبه له الفوص على المعانى والألفاظ والسعى لبلوغ قمة الكمال فى التعبير من يقظة وجذل .

وجعل اقامته فى المدن الكبرى فى أقاليم الجنوب التى تعمل شمسها فيما يؤمل على انضاج فنه وانماه بسخاء كأنه نبت المناطق الاستوائية ، لعل ارث الدماء التى كانت تجرى فى عروق أمه هو الذى جذبته الى تلك الأقاليم الجنوبية ولكن لما كان قلبه موانا خاليا من الحب منذ غرق فى مغامرات اللذة البهيمية وارتمى فى أحضان الشهوة والخطيئة الكاوية وكان يجد فى ذلك كله عذابا يفوق الوصف ، لعله أيضا ورث طبع أبيه ، هذا الرجل الطويل ، المتفكر الأنيق ، الحريص على وضع زهرة برية فى عروة سترته — هذا الارث أرهقه وأذاقه أشد العذاب وهو متمرغ فى منتديات السفلة فى قاع المدينة ، أينما كان . هذا الارث هو الذى يوقظ فيه أيضا إحاسيس نفسه فتتهفو بحسان غامض الى متع الروح التى كان ينعم بها من قبل ولا يجدها بين ملذاته الحاضرة .

طونيو كروجر ١٢٧

تملكه تقزز من المتعة الحسية ومقت لها ، وملاء
تعطش للظهر والعفاف ، للاستقامة الرضية الودية،
حين يمضى فى تنسم أجواء الفن ، دافئة رفيقة به
معطرة بأريج ربيع سرمدى ، حيث كل الخلائق تنمو
وتضطرم وتثبت فى نشوة خفية ، نشوة الإعجاب . ولم
ينتج له عن ذلك كله الا أنه وهو يتمزق بين أقصى
حدود النزعات ويتأرجح بين مباحج روحية ترطب
قلبه كأنها الأنسيم العليل ولذات حسية تفترسه بضراوة
أصبح يعيش وهو يواجه عذابات ضميره بعيشة
مستهلكة له ، عجيبة ، مضطربة ، مخبولة ، يمقتها
هو — طونيو كروجر — أشد المقت .

وكان يناجى نفسه أحيانا قائلا : يا له من ضلال ،
كيف خرج من يدى وقوعى فى كل هذه المغامرات العجيبة
مع أن طبعى ليس من طبع الفجر الرحل مولدهم فى
عربات خضر ولهم ميل الى البوهيمية .

وكان كلما زادت صحته وهنا زاد مزاجه الفنى
رهافة وأصبح متشددا عسير الرضى ، ذواقا ،
متأنقا ، له تأفف من كل شيء مبتذل ، شهيد الحساسية
لكل ما يمس الكياسة والذوق ، فلما خرج لأول مرة
عن صمته تلقاه عشاق الالب بالترحيب والرضى
وسرعان ما أصبح اسمه — هذا الاسم الذى كان
أساتذته من قبل ينادونه به حين يريدون زجره والذى
وقع به على أول أشعاره عن شجرة الجوز العتيقة
ونافورة الماء والبحر — هذا الاسم الذى يختلط فيه
تراث أهل الجنوب وأهل الشمال ، اسم من أسماء
الطبقة البورجوازية أريد له أن يفوح منه عطر بلاد
ساحرة بعيدة — أصبح هذا الاسم فجأة رمزا للبشارة
بقدرات فائقة اذ جمع فى إنتاجه بين الاستمداد من

طونيو كروج ١٢٨

أعماق تجاربه الريرة وتكريس نفسه لفنه بدأب نادر
المثال ، عنيد ، طموح ، يجاهد لاسترضاء حساسية
ذوقه المرفه الانوف من الابتذال ، وتحملت روحه
عذابات جمة لكى يسفر مخاضها الاليم عن مؤلفات
بهية رائعة .

لم يكن فى عمله يكدح كدح رجل يسعى وراء لقمة
العيش بل كدح رجل لا يريد أن يفعل شيئا سوى تعهد
عمله ورعايته ، قيمته واعتباره فى نظره الا يكون
انسانا محدودا بين الأحياء بل أن يكون
انسانا مبدعا خلاقا ، فالأيام الفواصل بين فترات
الابداع تمر بلا طعم ، بلا جدوى ، عاطل هو فيها
كالمثل حين يغسل عن وجهه الأصباغ التى لا يظهر
بها الا وهو تحت الأضواء فوق خشبة المسرح ، كان
يعكف على عمله فى صمت ، محبوبا فى عقر داره ،
محتجبا ، مليئا بالاحتقار للأمعات من الكتاب الذين
يحق لمواهبهم أن توصف بأنها مجرد حلية يترنون بها
فى المجتمعات ، وسواء فقراء أو أغنياء ، يجوسون
خلال الناس بسحن نفم عن التوحش والعصيان أو
باستعراض أربطة للعنق بها فخفة متمدة ، شأن
من يؤمن بأنه سعيد ظريف ، فتان الى أقصى حد دون
أن يعلموا أن الأعمال القيمة لا تولد الا فى قبضة
معيشة شقية وأن الذى يتعلق بأذيال الحياة لا ينهض
له عمل ، وأنه لكى ينبض لك عمل يدفع الحياة ينبغى
أن يعهد قلبك برودة الموت ويرضى بها ..

الفصل الرابع

وقف طونيو كروجر على عتبة الرسم وهو ممسك قبضته بيده ، بل محنيا رأسه قليلا وقال مسنأذنا ليزافيتا ايفانوفنا مع أنها صديقه ووديعة أسراره :
— أئسمحين لى بالدخول ؟
اجابته بلهجتها المنغمة :

— ادخل ، أرجوك ، بلا تكلف ، آمنا وصدقنا أنك رببت أفضل تربية وأنت متمسك بآداب السلوك .
تقول له هذا وهى تنقل الفرشاة ولوح الألوان الى يدها اليسرى لتمد له اليمنى وتحافحه ، مصوبة نظرتها اليه وهى تضحك وتهز رأسها . قال لها :

— كيف ادخل وأنت مسنفرقة فى عملك ، دعينى انظر ، حقا لقد قطعت شوطا طويلا .
واخذ ينقل بصره بين التجارب الاولى الملونة المسندة فوق المقاعد على جانبي الحامل وبين اللوحة الكبيرة ، ملأتها خطوط فى مربعات متشابكة مرسومة بالفحم — مشوشة لا تبين وان اضيفت فوقها اول لمسات الفرشاة بالألوان .

كان ذلك فى مدينة ميونخ ، فى طابق علوى من ببيت يقع خلف شارع شلنج ، من وراء النوافذ الشمالية العريضة سماء زرقاء وزقزقة عصافير وشمس ساطعة ، ويهب على الرسم من طاقات عالية مفتوحة نسيم الربيع ، عليلا رقيقا ، تخالطه رائحة معاجين هـ — لاعب الشطرنج

طونيو كروجر ١٣٠

الألوان وزيوته التي تغشى الرسم ، وضياء ذهبي لعصر يوم مشمس يغمر عرى الرسم بلا عائق وينير بكرم أرضه فيتبين بعض عطبها كما ينير المنضدة الخشنة بجانب النافذة ، فوقها البرطمانات وأنابيب الألوان والفرش ولوحات المحاولات الأولى — ولا أطار لها — مستندة الى جدران الرسم العارية وينير أيضا هذه الستارة الحيرية المنهثة التي تفصل عن الحجرة ركنا معدا لجلسة مريحة ، مزودا بثاث أنيق ، غشى الضوء اللوحة التي لم تتم بعد ، منصوبة فوق الحامل كما غشى الشخصين الواقفين أمامها : فنان الشعر وفنانة التصوير .

لعل عمرها يقارب عمره ، اى أنها لا تزيد عن الثلاثين الا قليلا وكانت تجلس على مقعد واطيء في ازار حالك ملطخ بمعاجين الألوان ، ونقنها معتمدة على كفها ، لها شعر بني متموج في حلقات بدأت أطرافها على الجنين تحول الى لون الرماد ، تنسدل على صدغها وتحيط كالاطار بوجهها الأسمر ، له سحنة أبناء الصقالية ، وجه جذاب له انف واطيء العرنين ووجنان بارزتان وعينان سوداوان صغيرتان لامعتان، كانت هيئتها نرم عن التوتر والتحدى ، كأنما تواجه استفزازا أو تحديا نتقخص لوحتها من جنب بنظرة من بين جفنين نصف مطبقين .

وقف الى جانبها ، يده اليمنى فوق خاصرته ، وبده اليسرى تبرم في عجلة شاربه البنى اللون يقطب في تجهم حاجبيه المنحدرين ، على حين أخذ يبعث من شفيه صفيرا خفيفا كعادته ، ملابسه في غاية الأناقة والرف ، سترته لها لون رمادي هاديء وتقسبل محتشم ، ولكن جبينه الذي ترسم عليه أمارات

طونيو كروج ١٣١

العذاب ، عنده يفترق شِعْرهُ الفائق نصفين فوق رأسه على نحو تستريح له العين لبساطنه وتوفيقه — هذا الجبين بدا له اختلاج ينم عن توتر الأعصاب ، ها هي ملامح وجهه — مطابقة لطراز ملامح أهل الجنوب — قد جعلها تقدم العمر ومر التجارب محددة أتم تحديد ، كأنما نقشها وحفرها أزميل نحات في حجر ، على حين بقى فيه محتفظا برسم ينم عن الوداعة ، وكذلك فُقنه ، رسمها لا يزال كأنه من صنع قلم رشيق يهيم بالرقّة .

مكث هذا برهة قصيرة ثم مر بكفه من فوق جبينه وعينه وقل وهو يستدير :

— ما كان ينبغي لى أن أحضر .

— ولم لا يا طونيو كروج .

— نهضت لتوى عن عملى وجئتك باليزافيتا ، والذي كان يشغلنى فى هذا العمل تمثل لى بعينه وذاته فى رسمك ، الأصل لوحة خام عاطلة ، مبدولة للفنان ، معدة له ، يتشكل فوقها أول الأمر — باهتة مختلطة — محاولات للرسم وتعديل الرسم ثم يضاف إليها بعض بقع من الألوان ، هكذا كان يتراءى لى سير عملى الذى انشغلت اليوم بمعاناته ، فإذا بى حين جئتك أجد أمامى نفس المعاناة ننم عنها لوجتك ، وأضاف وهو يتشمم هواء الحجرة ، ليحس بجوها المعبق برائحة الزبوت والألوان ، نعم ، أجد هنا حين معاناتى للبحث عن الصلح الذى يفض التناقض والتصادم أن هذا هو مرجع عذابى وأنا منكب على العمل فى خلوتى بدارى ، حقا انه أمر عجيب ، حين يملك الانسان خاطرا فإذا به يجده معبرا عنه أينما ذهب ، يكاد يسمع همسه فى حفيف الريح ورائحة ألوان الرسم وعطور

طونيو كروجر ١٢٢

الربيع ، الست معى ؟ نعم ، انه الفن ، ثم يصاحبه
 شيء آخر ، ما هو وكيف هو وما اسمه عندك ؟
 لا تقولى انه الطبيعة ، لأن الطبيعة ياليزافيتا لا تصينا
 بالإعياء بعد استنزاف طاقتنا على الخلق كما يفعل
 التعبير الفنى ، حقا كان الأفضل لى أن أخرج لنزهة
 وإن كنت غير واثق أنها كانت ستفنعنى ، منذ قليل
 وبالقرب من دارك التقيت بزميل لى هو اداالبرت
 القصصى فقال لى بلهجته العدوانية المألوفة : اللعنة
 على الربيع ، انه أبشع الفصول ، أفتقدر يا كروجر
 أن تستبقى فى ذهنك فكرة واحدة رائقة ، أن تقبل
 بهدوء على رسم ملامح وجه ولو بأبسط الخطوط ؟
 أن تظهر بأقل غنم من عملك ؟ أن تحدث الأثر الذى
 نريده ؟ أفتقدر أن تفعل شيئا من هذا أيام الربيع حين
 يدغدغ الدماء فى عروقك بلا حياء ، ينفض جسدك
 حشد من الأحاسيس المتطفلة مخلوعة العذار ، ماتكاد
 نغرقها حتى تجدها سوقية مبتذلة ، عقيمة ، لا طائل
 لك من ورائها ، وأضاف زميلى هذا : أما أنا فساذهب
 الى المقهى ، فهذا موقع حياوى لا يتأثر بتقلب الفصول
 كأنما يتمثل لى فيه اذن أعلى سماء يبلغها التعبير
 الفنى ، لا ينزل منها الا أنبل الأفكار ، هذا ما قاله
 لى قبل أن يضى الى المقهى وليننى صحبتته .
 امنعها حديثه فقالت له :

— حديثك ثيق ، ودعنى اقول لك ان الدم الذى
 بدغدغ العروق بلا حياء ليس دما وقاحا أنه على حق
 على نحو ما ، الربيع ليس أفضل الفصول ، قد يصدق
 هذا القول ولكن اسمع لى الآن ، ربيع أو لا ربيع ،
 لابد لى أن أتجز فى عملى خطوه صغيرة ، ان اتم رسم
 بعض الملامح ، ان أحدث اثرا أريده كما يقول زميلك

طوتيو كروجر ١٢٢

ادالبرت ثم بعدها نجلس في الصالون ونشرب الشاي وتنطلق في حديثك كما تشاء ذلك أنتى أجحك اليوم متقلا بالهموم وتود أن تخفف منها ، أما الآن فخذ راحتك حيث شئت بجانبى ، مالا فوق هذا الصندوق، هذا اذا كنت لا تخشى المساس بشباك الارستقراطية. واجابها وهو يرقب كيف تخط معاجين الألوان فوق لوحها .

— دعى ملابسى في حالها باليزافيتا ايفانوفنا ، اتريدى أن أخاط الناس وأنا مرتد ستره من القطيفة ممزقة أو ستره من حرير احمر قان الى آخر هذه المظاهر المعروفة عن الفنانين ، حقا ان الفنان لا يسلم من نزعة الى البوهيمية ، ولكن ينبغي له ان يسترها في قلبه ، أما عن مظهره فيلزم ان يكون ملبسه معنى به ومسلكه بلا عوار ، كلا ، قلبى ليس متقلا بالهموم اليوم ، المسألة أنتى اواجه مشكله أو تناقضا يشغلنى ويمنعنى عن العمل ، نعم ، فيم كنا نتكلم ، آه ، عن ادلبرت القصصى ، وقوله لى ان الربيع هو أشنع الفصول ، هذا حكمه وقد نفذ حكمه فمضى الى المقهى، اعترف لك أنتى منله ، واجد ان الربيع يصيب أعصابى بالنوتر وبأجناس من الاحاسيس الوضيعة اللذيذة في آن واحد ، أنا ايضا لا اسلم من الاهتزاز لها غير أنى لا أستطيع أن أنحى باللائمة على الربيع أو أن احتقره لهذا السبب اذ أشعر في قرارة نفسى بالخجل ازاء سذاجة تحاييله على القاء الشباك في طريقنا ، ازاء اعتزازه بنضارة شسبائه التى لا نعرف الهزيمة ، فأصبحت لا أدري هل ينبغي لى أن أحسد ادلبرت أو احتقره لانه غير مبتل بمثل هذه الاحاسيس وفي قلبه متلى .

طونيو كروجر ١٣٤

حقاً لا أحد يجيد العمل في فصل الربيع ، لماذا ؟
 لأن الاحساس به يتغلغل في أعصابنا ، والكتاب
 الأغرار هم الذين يعتقدون أن الفنان أسير أحاسيسه
 وأنها هي التي تقوده ، وكل فنان صادق يينسم برتاء
 لهذا الرأي الخاطيء الذي يصدر عن السذاجة والعجز ،
 ذلك أن فيض القلب ليس في نظر الفنان هو العنصر
 الأساسي في عمله ، هذا الفيض ما هو الا المادة
 الخام ، الغفل في ذاتها فيتناولها الفنان بلا انفعال ،
 ويسيطر عليها ليشكل منها صورة جمالية دون أن
 يفعل ، بل يعمل كأنها بتسلى ، كأنها عمله على هذه
 الصورة هو عنده نوع من اللعب ، أما اذا احتفل
 بفيض قلبه غاية الاحتفال وتأثر به اشد التأثر وحشد
 كل قواه لخدمته فان عمله يستحق أن يوصف بأنه
 فاشوش في فاشوش ، لأن الفنان اذا تضعضع
 واستجاب لعواطفه كل الاستجابة فلن يخرج من يده
 الا عمل ثقل الوطأة ، خام ، مهالك ، متخبط ،
 مقبض ، ممل ، مبتذل ، بلا جذور ، بلا اطار ، طعام
 بلا ملح ، أى عمل خلو من روح الدعاية ومؤدى هذا
 كله أن يكون وقع هذا العمل عند القراء هو عدم
 المسالة وعند الفنان هو خيبة الأمل والأسى . صدقيني
 يا ليزافينا ، ان الأنسر الأدنى الناجم عن التضعضع
 للعواطف أو عن العواطف ذاتها ابان انتقادها سيكون
 دائماً عملاً مبتذلاً ، لا قدرة له على النفع أو الامتاع ،
 اذ لا ينجم اثر له طابع جمالى الا عن اهتزازات جهاز
 عصبى يكون مشوياً ببلاء يسلم منه عامة الناس ،
 أعنى به هذا الجهاز العصبى الذى يختص به الفنان
 وحده وما يصحب اهتزازات هذا الجهاز عن جذل
 رطب ، بلا حمى ولا شرر متطاير .

طونيو كروجر ١٣٥

وكأننى أقول أن الفنان ينبغي له أن يبقى الى حد ما خارج عجيبة الإنسانية ، أن يتجرد منها بقدر ما ، وتكون له مع هذه الإنسانية معاشة ولكن من بعيد لبعيد ، غير ناظر بمسلكه هذا الى تحقيق مصلحة أو غنم ، حتى يجد نفسه بفضل القدرة التي تملكها أو في الحقيقة بفضل اغراء هذه القدرة له على استخدامها خليفاً بأن يعبر عن هذه الإنسانية وكأنها لعبة بين يديه ، أن ينقل البنا صورة لها تسم بحسن الذوق والاصابة معا ، أن تملك موهبة الأسلوب والشكل والتعبير هو في ذاته دلالة بديعة على أن الفنان يلقي الى الإنسانية نظرة من بعيد ، وهو بارد الأعصاب غير منفعل ، نعم ، هذا حرمان وتجرد لا مفر منها للفنان ، فالعواطف السليمة العفية — مهما كان رأيك فيها — لا شأن لها بمزاج الفنان ، ولا حكم لها عليه ، انما يعهد لها في نفسه فور أن يرتد ويصبح واحداً من عامة الناس ويبدأ قلبه ينبض بمثل مشاعرهم واحاسيسهم ، أن ادلبرت يدرك هذا وهذا هو سبب ذهابه الى المقهى ، وهى بالنسبة لفصل الربيع ميدان محابيد .

قالت له مليزافيتا وهى تغسل يديها في وعاء من الصفيح :

— حلال على صديقك ذهابه للمقهى ، أما أنت يا عزيزى فلا داعى لأن تحذو حذوه .
اجابها :

— نعم ياليزافيتا ، لن احذو حذوه لا لشيء الا اثنى اشعر مرارا في مواجهة الربيع بخجل من أن مزاجى يلقي قتاده كله الى الفن وحده ، صدقيني اثنى اثنى احيانا خطابات من مجهولين مليئة بعبارات النناء

طونيو كروجير ١٣٦

على انتاجى ، انها من اناس تأثرت قلوبهم بما كتبت وعبرت عن أعجابها بى ، أقرأ هذه الخطابات فيمس قلبى ما تنطق به من ود تلقائى ، ود غزير من فرط انسانيته تم أشعر بالرتاء لما أجده فى هذه الخطابات من حماس غارق فى السذاجة ، نم يحمر وجهى خجلا حين يتمثل فى خاطرى حالهم حين يزول حماسهم ويحل محله برود اذا ما تسنى لهم اللقاء نظرة وراء الستار، ان الامر الذى سيستعصى عليهم ادراكه بسبب براءة طويتهم هو ان الابداع فى الادب أو التمثيل المسرحى أو التلحين هيهات أن يصدر من رجل سوى سليم البنين والاعصاب ، ولكن هذا كله لا يصمدنى عن تقبل اعجاب هؤلاء الناس اذ أجده يحثى على الاندفاع فى العمل ، اننى آخذ هذا الاعجاب مأخذ الجد وأقلد كالقرد هيئة عظماء الرجال ومسلكهم ، لا تحاولى مناقشى ياليزافيتا ومجادلة اقوالى ، تقى اننى مريض اكاد أهلك من شدة الضنى بتصويرى لركب الانسانية دون أن يكون لى دور فيه أو نصيب . والسؤال الآخر هو : هل الفنان رجل كبقية الرجال ، دعينى اقترح فأقول لعل الجواب عند النساء . نحن الفنانيه اشبه ما نكون بطاقم المنشدين فى قداس البابوات ، لأجل أن تكون لهم اصوات الملائكة ينبغى أن يكون لهم اصوات النساء فلا هم ذكور ولا هم اناث ..

— ينبغى أن تخجل من نفسك يا طونيو كروجير تعال الآن تشرب الشاي ، ان الماء يكاد يغلى وها هى السجائر امامك هات ما عندك عن شنوذ الفنان عن عامة الناس ولكن بجدر بك حقا أن تخجل من نفسك ولولا ادراكى أنك تهب نفسك بحماس وفخر للرسالة المقدرة لك لسمعت منى كلاما آخر .

،لونيو كروجر ١٣٧

— لا تحدثيني عن الرسائل بالزافيتا ايفانوفنا ،
ليس الأدب رسالة ، انها الأدب لعنة ، أعرفين متى
يبدأ شعور المرء بهذه الحقيقة ؟ في وقت مبكر ، مبكر
الى درجة مفاجئة ، في وقت كان يكون من حقه غيه أن
يظل في وئام وسلام مع خالقه والكون ، يبدأ ادراكه
لهذه الحقيقة حين يبدأ احساسه بأنه منفصل ، في
تعارض عجيب غير مفهوم مع أسوياء الناس ، بينه
وبين الناس هوة تحفرها حساسيته المتكئة وقدره
بصيرته على النفاذ والكشف والادراك ، وميله الى
التشكك والمعارضة ، وتزداد هذه الهوة مع الأيام
عمقا واتساعا فاذا به يشعر أنه وحيد ، لا وئام له من
بعد بينه وبين الناس ، ياله من قدر ، هذه هي الكلمة
التي سيهتف بها لسانه لو افترضنا أن قلبه بقى حيا
قادرا ولو قليلا على النضارة والركة والعطف حتى
يدرك فجيعته ، ان ادراكه بفجيعته يتوهج لأنه يشعر
كأن يدا خفية دفعت جبهته بخاتم يميزه عن الناس
ويدرك أن هذا التمييز مسلحظه كل العيون ، لانقطع
مغالبتة ومجاهدته لاحساسه المرضي بذاته . عرفت فيما
مضى ممثلا مسرحيا من النوابع ، لا تنقطع مغالبتة
ومجاهدته لاحساسه المرضي بذاته وشعوره الدائم
بالقلق ، كان اذا لم يجد له دورا على المسرح فلا تكون
هناك شخصية تحيا بفضل تمثيله لها فيحيا هو بها
لشدة تقمصه لها يصبح تمثالا مجسما للجمع بين
عبقرية الفنان وتعاسة الانسان ، فهل هو ممثلا نابغة،
لا يتخذ من الفن مهنة يتعيش منها ، كأى مهنة أخرى؟
بل هو ممثل قد اجتباه الفن وحلت به لعنته ، يستطيع
المرء فرزه من بين جميع الناس ولو لم يكن له افسار
بنفاذ بصيرة أو صدق قراصة ، اذ سيدل عليه ما ينطق

طونو كروجر ١٣٨

به وجهه من شعور بأنه منفصل عن الناس ، له حساب مستقل ، انه غير مقيد بولاء ، بأنه مفتضح ومراقب بسبب شهرته ، نطق وجهه هذا يجمع بين الاستعلاء والارنباك — هذا هو ما ينطق به وجه أحد الأمراء حين يجوس خلال الناس وهو في زى عامة الشعب ، بملابسه مهما كثرت لا تستره ياليزافيتا ، فليتخف ولبتكر كما شاء ، فما يكاد ينطق بكلمة او يلقي نظرة حتى يتبين الجميع انه ليس بكبقية الناس ، بل مخلوق من جنس آخر ، جنس عجيب ، مختلف ، متفامر . . وشبيه بهذا الأمير ضابط الجيش أو السفير في السلك الدبلوماسي .

ولكن ما الذى يجعل من الفنان فنانا ؟ .

لا شيء مثل موقف عامة الناس من هذا السؤال يكشف عن نملهم وضيقهم من الاضطراب لأعمال الذهن واجهاده وعن تعلقهم الفطرى بنعمة الراحة وخلو البال ، هؤلاء السادة الكرام حين يمس عمل فنى قلوبهم يقولون بتواضع هذا شيء نعهده نحن منحة علوية ، ويفترضون ببراءة أن الأثر النبيل السامى لابد أن يتولد من مصدر نبيل سام ، فتهيأت اذن أن يخطر ببالهم وهم يتحدثون عن هذه المنحة العلوية بأنها شيء جدير بأن ينبر الريبة فيه ولا يبعث على الاطمئنان له ، وأنه يستند الى أسس نكراء ، هي نذير لا بشير ، وكل الناس تعلم أن الفنان مفرط في رهافة حساسيته وأنه من السهل جرحه ، كما تعلم أن الرجل العادى الواثق بنفسه هو بمنأى عن هانين الصنفين ، صدقنى ياليزافيتا ، ان هذا النمط من الناس المنمى لزمره الفنانين انما اكن له في قرارة قلبى عين الاحتقار التى كان يلقاه من أجدادى في

طونيو كروجر ١٣٩

موطنهم على بحر البلطيق كل مهرج سيرك « بهلوان » ولكنه احتقار يعبر عنه بلغة المتقنين لا بلغة الاسواق، انصتى الى ياليزافيتا ، أننى أعرف صاحب مصرف له غزواته فى سوق الأموال ، انه رجل بدا لون الرماد يتمشى فى شعره الأسود ، له موهبة فى تأليف القصص وينصرف الى كتابتها فى اوقات فراغه ، وبعض قصصه ممتازة ، ولكن رغم سمو موهبته — خذى بالك من كلمة رغم هذه ، فانه لم يسلم من الدناءة ، فقد دخل السجن لجرم كبير ، نعم ، كان فى السجن بدء انبهاه وادراكه انه صاحب موهبة وكانت نجاريه فى السجن هى المحور الرئيسى الذى ادار حوله قصصه ، وقد يكون من الحماسة أن نسارع الى الاستنتاج بأن التعرض للسجن — على أى نحو — شرط لأن يصبح الرجل شاعرا ، ولكن هل من سبيل للحرر من شك يساورنا بأن موهبته الفنية — فى منشئها وصميمها — ليست وليدة فترة مكونة فى السجن بقدر ما هى وليدة النزعات التى أدت به الى دخول السجن ، افيجتمع فى رجل واحد ان يكون صاحب مصرف ويكون قصيصا ، قد يحدث هذا ولكن حدونه نادر ، ولكن هل رايت مؤلف قصص هو فى الوقت ذاته صاحب مصرف منزه عن الاجرام ، ممتع باحترام الناس ، ناج من كل شبهة وريبة ؟ هذا مستحيل ، لا وجود لمنل هذا الرجل ، نعم ، أنت تضحكين منى ولكن نقى أن كلامى اقرب الى الجد منه الى الهزل ، فلبس فى الدنيا كلها معضلة معقدة كمعضلة الفنان من حيث كونه فى باطنه مبدعا وكونه فى ظاهره انسانا كبقية الناس ، وبالتالي معضلة ما ببركه الفن على عامة الناس من اثر ، أعنى اشد الاعمال الفنية اتارة للاعجاب والدهشة واصدقتها

طونيو كروجر ١٤٠

تمثيلا لمعنى الفن ، اذن ما أعظمها لهذا السبب —
 خذى مثلا عملا فنيا فيه مجافاة للفطرة السليمة وله
 ظاهر وباطن مختلفان وهو أوبرا تريستان وايزولد
 لفاجنر وارقبى أثره على مخلوق فى نضارة القلب
 وازدهار الصحة وسلامة الفطرة واستقامة الأحاسيس
 ستريته يتسامى ويزداد قوة ويملىء بالحساس المتقد
 النبيل ، وقد يتحرك نفسه هو أيضا فيختبر قدرته
 على الابداع مرحى بك أيها الغر المبتدىء ! هيهات
 أن يتصور أننا نحن الفنانين نختلف دخليتنا كل الاختلاف
 عن الصورة التى تخلفت لنا عنده ، بفضل اتقاد قلبه
 وصدق حماسه ، وقد رأيت كيف يحاط الفنان
 بالترحيب والاحترام من الشباب والنساء .. أما أنا
 فأعلم الحقيقة ، حقيقة الابداع الفنى من حيث منابعه
 ومظاهره وشروطه ، كم راقبت هؤلاء الفنانين مرارا
 وتكرارا ..

— أهذه هى كل خبرتك يا طونيو كروجر ، أهى
 مقتصرة على مراقبتك لهم .. للغر .. أم لها مصدر
 آخر ..

لم يرد عليها بل تطب حاجبيه وأخذ يصفر بشفتيه .
 — ناولنى قحك يا طونيو فالشأى به خفيف وخذ
 سيجارة أخرى ، أنت تعلم حق العلم أنك نأخذ الأمور
 على غير ما ينبغى بالضرورة أن تؤخذ به .
 — هذه هى عين اجابة هوراشيو يا عزيزتى
 ليزافينا ، مواجهة الأشياء كما تريدن ، مواجهتها عن
 قرب شديد ، أليس كذلك ؟

— ازعم يا طونيو كروجر أننا نستطيع أيضا
 مواجهتها عن قرب من جانب آخر وتحت ضوء مختلف،

طونيو كروجر ١٤١

ما أنا الا امرأة بسيطة ، ترسم لوحات ، ماذا أردت
 أن أناقضك وأن أبريء موهبتك من اتهامك لها ولو
 بمرافعة متواضعة فلن يتسنى لى أن أقول شيئا
 جديدا ، غاية الأمر سأذكرك بأمر تعلمها أنت حق
 العلم عن الأدب كيف يمنح الطهر والشفاء ، عن جموح
 العواطف كيف يلجمه استنارة البصيرة والافصح ،
 عن الأدب الذى يقود الى الفهم ، الى التسامح ، الى
 الحب ، عن سحر الكلمة المانحة للنجاة والخلاص ،
 عن فن الأدب باعتباره أنبل مظهر للعقل وأشرفه ،
 فالشاعر هو الإنسان الكامل ، هو القديس ، أهذا
 نظر للأشياء لا يشفى غليلك من التعجب لها ؟
 — لك الحق ان يكون هذا هو كلامك ياليزافيتا ،
 اعتمادا على اعمال الشعراء فى الأدب الروسى البديع
 الذى يفتخر به وطنك والذى يتمثل فيه أتم تمثيل
 قداسة الأدب التى تتحدثين عنها ، ولكن لا تحسبى
 أن اعتراضك ليست فى بالى ، فانها مما يشغل
 ذهنى اليوم ، انظرى الى ، هل تطالعك منى مظاهر
 بهجة مفرطة ، اننى أتبدد كأنها شخت قليلا ، ولحقتنى
 الجفاف وركبى التعب ، دعينا من هذا ولنعد الى
 حكاية العلم والادراك نتمثل رجلا تهديه فطرته السليمة
 الى الإيمان بالخير ، انه وديع حسن النية يتخاذل
 للعواطف قليلا ، مثل هذا الرجل اذا ملك بصرة
 كاشفة للنفوس فانها خليفة بأن تستهلكه وتهدمه هدمًا
 كاملا ، فالمسألة هى الا ندع أحزان العالم تضعضعنا ،
 وأن نلحظ ونرقب ونسجل فى ذهننا وننتفع بالجديد من
 تجاربنا حتى المفجعة منها ، ثم يكون لنا فى الوقت ذاته
 ادراك بأننا اسمى معنويا من هذه اللعبة المخترعة التى
 تسمى بالوجود أو بالحياة ، نعم ، حقا تمر بنا أحيانا

طونيو كروجر ١٤٢

لحظات نشعر فيها أن هذا الوجود يستولى علينا
ويغرقنا في أحضانه بالرغم من احساسنا بالجدل
لقدرتنا على التعبير . هناك من يقول الفهم يتبعه
التسامح ، هل هذا صحيح ؟ لست أدري ، أن نفوسنا
تعرف أحيانا شعورا أسمه التقزز من المعرفة ، هذا
الشعور الذى يكفى معه للرجل أن تكشف بصيرته
خلصة باطن أمر من الأمور لكى ينتقز منه كل التقزز .
فيذا غم هيئات أن يتبعه تسامح ، أننى استشهد
ببالمات ، أنه خير مثال للأديب ، كان يعلم حقيقة نفسه ،
وإى انسان هو ، وأنه مقدر عليه أن يدرك أشياء
لا استعداد ولا قدرة له على ادراكها ، حاله حال
انسان يرى الأشياء بوضوح من خلال غيام الدموع
التي ما تزال عالقة بأجفانه ، يدرك ويلحظ ويرقب
وتكرهه نفسه أن يسجل في ذهنه وهو يبسم لكى
يخترن في ذاكرته كل ما يعلق به بصره حتى في لحظة
قبض يده على يد الحبيب والنقاء شفثيه بشفثيه ،
وانمحاء بصره من شدة انقاد عاطفته ، هذا شيء
يشع بالبزافينا ، شيء وضع ، منتقز له النفس ،
ولكن ما جدوى التورة عليه ، وهناك جانب آخر سقيم
لهذه المسألة ، هو مقابلة كل الحقائق بشعور تصنعه
اللامبالاة وليدة النخمة ، والضجر المصحوب بالتهكم
والاستخفاف عند الشيع من التجارب ، أتم مثل على
الميل الى الصمت واختفاء المتعة في الحديث تحدينه في
جلسة حلقة من الأنكياء طاف ادراكهم بكل الأشياء
فكل خبر عندهم قديم مستهلك وياعث على الملل اذا
عبر لهم انسان عن حقيقة تصيدها وامتلاكها بعد أن
كانت هاربة منه فسر بتوفيقه سرورا يكاد أن يكون
صبيانيا لم يكن تعليقاتهم على اكتشافه المبتذل عندهم

طونيو كروجير ١٤٣

الا نطقهم له بكلمة واحدة هي (طبعاً ، طبعاً) نعم
يا ليزافينا ، ان الأدب يورث الأعباء ، نعم ، قد يحدث
لإنسان — صدقيني — بدافع من ميله الى التشكك
والارتياب واستصوابه الا يجهر برأيه أن يسلكه
الناس بين الحمقى والأغبياء على حين أن الدافع له
هو الكبرياء وعدم الايمان بجذوى الشجاعة في معترك
الآراء ، هذا هو ما أقوله عن العلم والادراك ، أما عن
التعبير فإنه عندي لا يتمثل فيه النفس عن النفس
بقدر ما يتمثل فيه ترطيب العواطف المتقدة حتى تبرد
بعد توهجها ، حقا ان هذا الرأي الأحق السطحي
القائل بأن التعبير وسيلة للتحرر من ضغط العواطف
هو محض ادعاء تنور له النفس وتفسر فيه حل
للمشكلة تغلب عليه برودة القبر لا دفء الحياة كأنني
أقول لن هصرت العواطف قلبه وهاجت أشجانه
وانفعالاته لتجربه مرت به الا تبتئس ولا نئس ، الحل
سهل ، ما عليك الا أن تقصد أدبيا فإنه سيحط عنك
احمالك في غمضة عين ، فهو سيحلل شعور قلبك
ويكتشف له نمطا ويجعل له اسما ولسانا يعبر به
عن ذاته فاذا بك قد شفيت من كل لواعج قلبك
وأصبحت بقية عمرك نأخذها بلا مبالاة ، واعلم أن هذا
الأديب لن يسألك عن خدماته جزاء ولا شكورا فتعود
الى دارك وقد زال ارهاقك ، رطب القلب ، مستتر
البصيرة تسأل نفسك ما هذا الذي كان منذ لحظة
يعتلج في قلبي فأجد له الما لا يخلو من لذه كبيرة ،
يا للعجب لصاحبنا هذا حين نجده رغم ذلك يصبر من
كل بد على الدفاع عن الأديب ، هذا اللاعبان المغرور
الذي قد قلبه من الثلج . ان ايمان هذا الأديب هو أن
التعبير عن المشكلة إنما هو فض وحل لها ، فاذا

طونيو كروج ١٤٤

قيض للكون كله صيغة تعبر عنه فار الكون كله سيجد فيها فضا وحلا للفزه ويتحرر ويفقد الهيئة التي وجد عليها ، نعم ، هو هذا ، مع انى لست فوضويا .

قالت له ليزافيتا :

— كلا ، لست فوضويا ..

وكانت تمسك ملعقة الشاي قريبة من فمها وبقيت برهة جامدة على هذا الوضع ، قال لها :

— هيا هيا ياليزافيتا ، اعلمى اننى لست فوضويا فيما له مساس بالعواطف الحية ، واقول لك ان الأديب لا يدرك أن الحياة قادرة على متابعة سيرها حتى ولو بعد أن تبوح بالتعبير عنها ، ومهما وجدت في الأدب تطهيرا لها فانها لا تنقطع عن الاتم — اذ أن كل فعل انما هو اتم في نظر العقل .. هذا ختام كلامي ياليزافيتا والآن انصنى لى ، اننى أحب الحياة ، هذا اعتراف اودعه عندك لكى تحتفظى به ، لم انطق به لأحد قبلك ، يقولون عنى ويكتبون وينشرون اننى اكره الحياة ، اذ اننى أنهيبها وأخشاها أو اننى أحنقرها ، أو اننى أمقتها ، وقد تلقيت كل هذه الأحكام بسرور داعب غرورى ، ولكنى ما أشد بعدها عن الصواب ، فانى أحب الحياة ، اراك تبسمين ياليزافيتا واعلم السبب ، ولكنى أناشدك ألا تأخذى ما قلته لك الآن أخذك لصفحة من كتاب لأديب لا يعنى الا بمطالب التعبير الفنى ، اياك أن يرد ببالك سيزار بورجيا وكل شاعر ماجن جعل منه حامل اللواء فى كتيبة عشاق الحياة ، فانى أحنقر سيزار بورجيا هذا ، لا قيمة له عندى ، اذ لا افهم اطلاقا كيف يصح اتخاذ الشاذ والشيطنى مثلا أعلى .

طونيو كروجر ١٤٥

كلا ان الحياة — هذا النقيض الأبدى لمنطق العقل
وللفن — لا نبدي لنا للدلالة عليها وجهها يوحى لنا
بصور مهولة عن أمجاد ملطخة بالدماء وعن جمال
وحشى فنحن — اعنى هؤلاء الذين لهم حساب خاص
ومختلف عن حساب غيرهم — لا نتصور الحياة ان
تكون مثلنا مستعلية على القياس والذى ينحصر فيه
تطلعات أشد أمانا انما هى الحياة العادية المألوفة
الجديرة بالاحترام والاعجاب — الحياة التى بمنحها
ابتذالها كل سحرها ، هيهات يا عزيزتى ان يكون
فنانا هذا الرجل الذى لا ننجذب أعز أحلامه وأشدها
استيلاء على قلبه الا لعالم النائق المرف والشذوذ
المنزق ، والجموح الشيطاني ، هذا العالم الذى بجهل
معنى امتلاء النفس سرا لعنف الطموح الى مباحج
الحياة العادية المألوفة . من لى بانسان اتخذه صديقا ،
انسان صديق ، تقى ، ان فوزى بصديق من البشر
يملائنى بالسرور والفخر ، ولكنى الى اليوم لم اظفر
بصديق الا من بين أناس لهم طبع الشباطين او
الوحوش ، طبع غير جذاب ، أناس اذا خالطتهم
حسبنتى أخالط أشباحا عقد الادراك السنتهم فهم
يدورون بها فى أشداقهم — اعنى بهم الأدباء .
يحدث لى أحيانا ان أعتلى منصة وأجندنى فى روات
أواجه أناسا أتوا للاستماع لى ، أقول لك يحدث لى
حقيقة وأنا انظر الى أفراد هذا الجمهور من حولى أن
انشغل بمراقبة نفسى وافاجئها بنظرة فاذا هى تكشف
لى انها منشغلة سرا بالتشوف للعتور بين المستمعين
على هذا الذى يكون قد جاء من أجل شخصى أنا ،
ذاتى أنا ، هذا الذى بquam بيننا قنطرة يصلنى عبرها
نصفيقة لى ورضاؤه عنى وشكره لى ، هذا الذى

طونيو كروجر ١٤٦

يجمعنى به الفن فى رباط مثالى ، غير أنى لا أجد من أبحث عنه ، بل أجد القطيع ، عين المجتمع الذى أعده أنه عين الحشد الذى كان يضم أوائل المؤمنين ، أناس لهم أرواح راقبة وأجساد جملة تنقصها الرشاقة ، هم وحدهم الذين يتعثرون ويسقطون فى حلبة الرقص ، انهم من هذا الصنف من الناس ، الذين يرون فى الشعر انتقاما من الحياة ، ولكنه انتقام برفق ، لا يحدث أبدا أن تجدى فى هذا الحشد سوى نفر من الغلبة حملة الاثراق والآلام ، لا يأتى أبدا باليزاميتا واحد من الآخرين ، هؤلاء الذين لهم عيون زرق ممن لانسان لهم بهذه المهوم كلها .

ثم بعد هذا كله أفلا يكون من الخطل وفساد المنطق الذى يؤسف له أن نريد للأمور أن تصبح على غير هذه الحال ، فمن حماقة كل الحماقة أن تعشق الحياة ثم تحشد كل قواك لكى تجذبها ناحيتك ، ناحية الحس المهذب الرهف ، والكآبة واستعلاء الأدب ، ان مملكة الأدب تزداد حينئذ اتساعا فى دنيانا ومملكة الطبع السليم والبراءة تزداد تقلصا ، ومما يتبقى لنا منها ينبغى أن نحفظ به ونحرص عليه ، والأ نحث على قراءه الشعر أناسا بفضلون قراءة وصف التكاثر صور الخيل وهى منطلقة فى عدوها . فهل هناك فى نهاية الأمر منظر أباس من منظر الحياة وقد ضلها الفن ، ونحن الفنانين لنا احتقار شديد لمن يلم بمعبد الفن المام الزائر اللاهى لا المام القاطن المهوم ، أعنى به هذا الرجل الذى يحيا حياته كبقية الناس ثم يظن أنه قادر أيضا أن يكون فنانا اذا ما واته الفرصة ، أنتى أتحدث عن تجربة ذاتية ، صدقنى لك أن مصورى حالى حين يضمنى أحيانا جمع من أناس

طونبو كروجر ١٤٧

كرام مهذبين ، نأكل ونشرب ونترثر ، بسود بيتنا
الفاهم على أمتل وجه وسعدنى أن أجدنى لفترة
مندمجا بأناس لهم انكشاف وانبساط نفس كأننى واحد
منهم ، وفجأة — وأنا أروى لك عن خبرة ، أؤكد لك ،
فينهض من بينهم شباب وسيم ، نعرف أنه ضابط
فى الجيش ، لا يخطر ببالى أن يصدر منه فعل لابناسب
زى السهرة الذى يرنديه من يغشى الحفلات طلبا
للمنعة واللهو ، واذا به سنأذننا فى عبارة مقتضبة أن
يقرا علينا شعرا من نظمه فنأذن له ونحن نضحك
ضحك المخرجين ، فاذا به بخرج ورقة كان يخفيها
طول الوقت فى جيبه ويتلو علينا كلاما نظمه عن
الموسيقى والشعر ، فيه تعبير مباشر عن احساسه
فهو من تم تعبير لا قيمة له ، تأملى هذا اذن ، ضابط
وشاعر ورجل سالونات ! ما حاجته الى الابتلاء بفن
الشعر ؟ وكانت النتيجة — كما هو المتوقع — أن
استمع له الجميع بوجوه تنطق بالعناء فى صمت ،
تصدر منهم أحيانا نامة تعبر عن استحسان مكذوب .
ويسود الجميع جو كثيف من الحرج ، اذل ظاهرة من
معانى هذا المشهد التى ينتبه لها ادراكى هو وشعورى
بأننى أتحمّل قسطا من جريرة هذا الصدع الذى احدنه
هذا الضابط فى زمرتنا ، بل صدقنى اذا قلت لك أننى
أرى رأى العين نظرات بعضهم تتجه نحوى ، ينطق
بالتهمك والاستبواخ ، أفلمست ملتائا بين الفن الذى
يخبط فيه هذا الضابط .

أما الظاهرة الثانية فالبك صورتها ، هذا الضابط
الشاب الذى كنت منذ لحظة أكن لشخصه وحسن
أدبه احتراما صادقا أخذ فجأة يهبط فى نظرى درجة
بعد درجة ، فيتملكنى شعور بالعطف عليه والرناء له

طونيو كروجر ١٤٨

فأتقدم اليه مع نفر من الحاضرين واستمد الشجاعة
بدافع من كرم أخلاقهم وأقول له تهانئ الحارة ياكابتن!
أنت حقاً موهوب ، وشعرك ظريف ، لا ينقصنى إلا أن
أطبطب أيضاً على كتفه ، ولكن مثل هذا العطف
والتلطف لا يليق بضابط أن يتطلبه من الناس ، الذنب
ذنبه ، ها هو ذا بعد القاء شعره جامد في وقفته ،
يكفر عن خطيئته بهذا الاضطراب الذى يجالسه ، خطيئة
اعتقاده بأنه من المستطاع قطف ورقة واحدة من
شجر الغار رمز انتصار الفن دون أن يكون الثمن هو
وداع الحياة المطمئنة .

كلا ، اننى أفضل فى هذا المجال قرينى القصصى
صاحب المصرف المحترم ، ولكن ياليزانيتا هل تتهميننى
بأننى منطلق فى ثرثرة لا ند لى فيها سوى هاملت ..
— هل انتهيت يا طونيو كروجر ؟

— كلا ، ولكنى سأطبق فمى .
— وأنا أيضاً مستكفية بهذا ، وهل تنتظر منى
ردا .. ؟

— وهل عندك رد ؟
— نعم ، أعتقد ذلك ، وقد أحسنت الانصات اليك
يا طونيو من البداية للنهاية ، وأريد أن أوافيك برد
يناسب كل ما قلته لى ، يتمل فيه حل المشاكل التى
تضنيك وتعذبك ، ولكن كلا ، لا رد عندى ، فسبب
مشاكلك أنك — كما أنت مائل أمامى — لست إلا
واحداً من أبناء الطبقة البورجوازية ، لا أكثر ولا أقل .
فسألها وهو متضعض قليلاً .

— أهذا ظنك بى ؟
— نحسببى قسوت عليك ، اليس كذلك ؟ ولا مفر

طونيو كروجر ١٤٩

لك من الاعتقاد بأن كلامي يبدو لك قاسيا ، لذلك أريد
أن أخفف قليلا من وقع حكمي عليك ، أنني قادرة على
ذلك اذ سأظل رغم هذا الخفيف أمينة لك وصادقة ،
ما انت الا واحد من أبناء الطبقة البورجوازية ، ضل
في طريق غير طريقه من هو طونيو كروجر ، ما هو
الا بورجوازي طائش سهمه .
ساد الصمت ثم نهض بعزم وتناول قبعته وعصاه
وقال لها :

— أشكرك يا ليزافيتا ، أستطيع الآن أن أعود الى
داري وأنا هادئ النفس فان ادراكي لمشكلتي قد
فضها ..

الفصل الخامس

قال طونيو كروجر لصديقه ليزافيتا ايفانوفنا وقد اقترب الخريف :

— سأسافر با ليزافيتا ، يلزمنى تبديل الهواء ،
وان أعيش فى الخلاء .

— ماذا بك يا صاحبى ، تريد الرحلة مرة أخرى الى ايطاليا .

— بالله دعينى من سيرة ايطاليا ، فقد مللتها حتى أصبحت ازديها ، لقد مضى منذ وقت طويل هذا العهد الذى كنت أعدها فيه وطنى ، لأنها موطن الفن ، اليس هذا هو ما يقال ، السماء مخمل أزرق ، والنبىذ مكنال ، واللذة الحسية ودود ، كل هذا أصبح لا معنى له عندى ، نفضت منه اليدين ، كل هذه الحلاوة العسلية تصيب أعصابى بالتوتر ، أصبحت لا أطيق مخالطة من أجده فى ايطاليا من أناس لهم حدة فظلمة فى الطبع والحركة ، عبونهم سود كعيون الحيوان ، ان أبناء الرومان هؤلاء لا يلمع فى نظرتهم معبر روحانى، كلا ، سأسافر فى رحلة قصيرة الى الدانمرك .

— الدانمرك ؟

— نعم ، أنا واثق بأننى سأنفوز بمتع كنسيرة من رحلتى للدانمرك . لم يقدر لى أن أزورها مع انى عشت كل صباى قريبا من حدودنا معها ، ومع ذلك

طونيو كروجر ١٥١

لم ينقطع حبى لها وتأملى لصورتها من بعيد ، ان هذا السحر الذى أجده فى نفسى لبلاد الشمال لأبد موروث عن أبى ، لأن أمى كانت أكر ميلا الى هذه الحلاوه العسلية الايطالية التى وصفها لك وان كانت كل المتع عند أمى سواء ، أقرأى مؤلفات الدانمرك ، انها أدب عميق ، صان ، تثرية روح الدعابة ، لا أعلى عليه أدبا آخر ، اثنى أحب هذا الأدب الدانمركى وانظرى أيضا الى طعام بلاد الشمال انه لا يفوقه طعام آخر ، لا كفاء له الا من يملأ رئييه هواء البحر ، ولست أدري هل أنا كفاء له أيضا ، ذلك اننى خبرته قليلا بسبب نشأتى اذ كنا فى أسرتنا نأكل اكل بلاد الشمال ، حتى الأسماء الشائعة فيها يجذبنا شائعة أيضا فى موطنى فى الشمال ، مثلا اسم انجبورج ، الا قسمعين فى نطقه عزفا على أونار الهارب بنفمة شاعرية صافية ، ثم لا ننس البحر هناك ، بحر البلطيق ، نعم ، سأسافر الى الدانمرك يالبزافيتا لأننى أشتاق الى رؤية بحر البلطيق وان يتكرر اسمه على مسمى ، أهل اسكندنافيا ، أريد أن أقرأ أدبهم فى الجو الذى نبت فيه وأريد أيضا أن أطأ بقدمى شرفة قصر كرونبرج حيث ظهر الشبح لهاملت فأسكن الحزن وطعم الموت فى قلب هذا الشاب النبيل البائس .

— وكيف سيكون وصولك الى الدانمرك ، ان جاز لى أن أسالك ؟

أجابها وهو يهز كتفيه وقد علت وجهه حمرة خفيفة:
— بالطريق المعتاد ، وسأبدأ من حيث أن ينبغى أن تبدأ رحلتى منذ ثلاث عشرة سنة ، ليس هذا قد يبدو مضحكا ..

طونيو مروجر ١٥٢

فابتسمت وقالت له :
— هذا ما كنت أريد أن أسمعته منك ، فسامر انن
في رعاية الله ، ولا ننسى أن تكذب لي ، أنى سأنظر
منك خطابات تروى لي فيها تجاربك اليومية وكيف
معيشتك في الدانمرك .

الفصل السادس

وبدا طونيو كروجر رحلته الى الشمال ، انه حريص على أن يستوفي أسباب راحته في سفره اذ كان من عاداته أن يقول : حين يكون للمرء من داخله حياة يشقى بعذابها شقاء لا يعرفه غيره فمن حقه أن يلتمس من الحياة من حوله نصيبا من الراحة ، لا ضمان عنده ان سافر حقا الا بعد أن تمنلىء عناءه من أبراج المدينة ذات الأسوار التي ودعها ذات مساء لبراها مرة أخرى ماثلة أمامه تحت ضوء المغيب في لون الرماد . فكانت له بمدينة هذه المامة قصرة وعجيبة .

وصل عصر يوم وقد شحبت الشمس وهى تنحدر الى المغيب ، ودخل القطار المحطة الصغيرة ، تفوح فيها رائحة الدخان ، ما أعجب الفه لها ، سحب البخار تحت السقف بفتحاه المغطاة بزجاج قذر تتفرق مزقا تتسكع يمنة وسره كالعهد بها يوم رحل طونيو كروجر من هذه المحطة ذاتها ، ولا وديعة في قلبه سوى شعور بالهكم والسخرية . انشغل بحقائبه ثم امر بارسالها الى الفندق وغادر المحطة .

ها هى بعينها وذاتها عربة الحنطور أم جوادين ، نسيحة ، عالية السقف ، تقف صفوف منها أمام المحطة ، كل الذى طرا هو أن طونيو أخذ يتفحص هذه العربات بنظرة مستفهمة ، تفحص بها أيضا كل

طوبيو كروجر ١٥٤

شئ صادفه ، قعم المنازل المثلثة الأضلاع ، وخيل اليه أنها تلقى عليه السلام ، يتفحص بها المارة : أناس شقر لهم بدانة ومشية بليدة ونطق للالفاظ خطف ولكن في وضوح ، غلبته ضحكة متوترة تشبه على نحو غامض نشيج رجل يتكتم البكاء ، وأخذ يمشى متمهلا ، يلفح الريح البارد وجهه ، وعبر القنطرة المقامة فوق النهر ، تزينها تمانيل لشخوص أسطورية بم سار أيضا بحذاء رصيف الميناء .

يا الهى ! كم هى ضيقة وملتوية كل المسالك فى هذه المدينة ، أفمئذ الأزل تصاعد هذه المنازل المحنية للسقوف الى قمة المدينة بجهد لا يخلو من خيلاء ، مداخن السفن وقلوعها يؤرجحها الرياح برفق على سطح النهر الشاحب تحت ضوء المغيب ، أفى نيته أن يصعد مع هذا الشارع الى منعطف يقع عنده المنزل الذى شغل أحلامه ، كلا ، ليعترك ذلك الى غد ، أما الآن فهو محتاج الى النوم ، ثقلت رأسه من تعب السفر فلا تدور بها الا خواطر بليدة مغلفة بالضباب . كان فى الماضى — خلال ثلاث عشرة سنة . يحلم أحيانا أنه عاد مرة أخرى الى أسرته ، الى المنزل الفسيح الذى ترن فيه الأصوات ، الحلال على شارع منحدر ، يحلم أيضا أن أباه كان من جديد بالدار ، وأنه ينهال عليه بالتقرب الشديد بسبب حياة الفساد التى يعيشها ، وأنه كان يجد هذا التقريع مهما تكرر أمرا طبيعيا ، ان اللحظة الحاضرة عنده ترفض كل الرفض أن سميز بفكرة اختلاطها النام بلحظات تلك الأحلام الخادعة التى لا يتأتى حل مغاليقها ، والتى يتساءل فيها النائب هل الذى يراه وهم أم حقيقة ، وينساق الى القول بأنه حقيقة وايس بوهم ، بم ينتهى

طونيو كروجر ١٥٥

على الحاليين بفتح عينيه وهو مستيقظ .
تابع سيره في شوارع تكاد تخلو من الناس ولكن
تمتلئ بتيارات الرياح ، فيصدها عنه باحناء رأسه ،
واتجه وهو مثقل بالنعاس ، فكأنه يمشى وهو نائم ،
نحو الفندق ، أرقى فنادق المدينة ، حيث اعتزم قضاء
ليلتته .

كان يسير أمامه رجل مقوس الساقين يتمايل على
الجنبين في مشية بحارة السفن وهو يحمل عصي طويلة
تنتهى بجذوة يشعل بها مصابيح الغاز في الطرقات . .
ما الذى دهاه ، ما الذى يعتلج في قلبه ، ما هذه النار
التي يتكوم عليها رماد تعبهِ وارهاقهِ فلا يتعالى منها
لهيب ساطع وإنما تظل تنقد في باطنها بعبوس كأنه انتقاد
الجحيم ، هس هس ، لا تفتح فمك ، لا تنطق بكلمة ،
الجم لسانك ، كان بوده أن يسير هكذا طويلا في وداعة
ضوء الشمس الغارية عبر الشوارع المألوفة له ، ولكنها
أطبقت عليه بضيقها وتشابيحها فما لبثت خطواته أن
ساقته الى فندقه .

مصابيح الغاز في قمة المدينة اضيئت لتوها ، وهذا
هو فندقه ، تعرف على تماثيل الأسدين الرابضين على
جانبى مدخل الفندق ، بقيت صورتها في ذهنه ، كان
يخاف منها وهو صبي ، وجددها لا يزال كل منهما
محبوبا خشمه نحو الآخر ، كأنها يريد أن يعطس ولكن
ما بال حجمها قد تضاعل كثيرا ، ومر طونيو كروجر
بينهما ليدخل الفندق .

ولأنه وصل الى الفندق سعيا على قدميه دون أن
يترجل عن عربة شأن سادة الناس فقد كان استقباله
غير محاط بمراسم الاهتمام التي يحظى بها زبائن هذا
الفندق .

طونيو كروجر ١٥٦

استقبله البواب ورجل آخر مكلف بالحفاوة بالقادمين، يرتدى سترة سوداء ولا ينفك يبنصر في كل يد يدفع عن معصمها كم القميص لكي يدخل الى ذراع سترته ، ألقياً عليه نظرة متفحصة من قمة رأسه الى أخمص قدميه ناطقة ببذل جهد لتخمين مقامه ومركزه في المجتمع، وتقدير مدى الاحترام الذي ينبغي له أن يلقاه في الفندق، وارتدت اليهما هذه النظرة عاجزة عن التخمين ، اذن سيكون استقباله بقدر معتدل من الادب والحفاوة وجاء العامل المكلف بخدمة النزلاء وتقديم ما يطلبون من الخمر وهو رجل تبدو عليه الوداعة ، انسدل شعر رأسه فغطى فؤديه في لون يجمع بين البياض والاصفرار ، يرتدى سترة تلمع من فرط القدم وخفا لا يسمع له وقع على الأرض ، محلى بأنشطة عريضة وقاد طونيو الى الطابق الثاني وأدخله حجرة لها اثاث حسن ، من طراز عتيق .

من وراء النافذة وتحت ضوء يخافت به المغيب يمتد منظر خلاب ، يذكرك بالقرون الوسطى ، أفنية وسقوف محنية وكنايس لها عمارة عجيبة ، يقع الفندق في جوارها، ظل طونيو كروجر واقفا برهه أمام النافذة ثم انثنى فجلس على الأريكة الفسيحة ، عاقدا ذراعيه على صدره ، مقطباً حاجبيه ثم شرع يطلق صفيرا خفيفا من بين شفثيه . جاؤا له بمصباح وأحضروا له حقائبه ووضع العامل الوديع بحركة لا تنم عن الاهتمام فوق منضدة سجل الفندق الذي تقيد به أسماء الواقفين عليه ، انحنى عليه طونيو كروجر ومال برأسه الى جنب وخط به كتابة يقارب شكلها شكل اسمه وصنفته وموطنه ، ثم أمر بأن يعد له طعامه ، وبقي وهو جالس في ركن الأريكة يلقي نظرة تائهة في الفضاء ، وجيء

طوني كروجر ١٥٧

له بالطعام ووضع أمامه فمكت زمنا طويلا دون أن يمسه ثم تناول بعض لقيمات ، ثم ظل قرابة ساعة يتمشى جيئة وزهابا في الحجرة ، يتوقف أحيانا ويغمض عينيه ، ثم خلع ثيابه ببطء ورقد في فراشه . نام طويلا ، تطوف به أحلام مخلطة ملأى بالحسرات والأشواق المبهمة .

استيقظ فرأى حجرته يغمرها النور ، فوجيء بمنامه هذا فأسرع يتذكر أين هو ، ثم نهض ليزبح سنار النافذة ، الصيف يولى فالسما في زرقة بدأت تشحب ، تعبر بها قطع رقيقة من السحاب تمزقها الرياح ولكن ضوء الشمس كان يغمر المدينة التي كان بها مولده ، استعد للخروج فبذل في العناية بمظهره صبرا لا يبيذه عادة ، واثقت بكل جهده استنحماته وحلاقه ففنه ، فكانت له جلوة تعمدها كأنها اعتزم أن يزور أناسا في قمة الرقى ، والتمسك بقواعد السلوك ، يريد أن يروا فيه أحسن مثال على الأناقة الكاملة ، وظل وهو يرندى ملابسه ينصت الى دقات قلبه الوجلل .

ضوء النهار خارج الفندق ، ما أقوى سطوعه ، كان خليقا بأن يشعر بشيء من الراحة والإطمئنان لو أن الضوء كان كما بالأمس ضوء المغيب الخافت الذي يسدل العتمة على الشوارع ، أما اليوم فلا مناص من أن ينكشف لأعين المسارة جميعا ، هل سيقابل يا نرى بعض معارفه فيستوقفونه ويلاحقونه بأسئلة يضطر الى الاجابة عليها : كيف قضى ثلاث عشره سنة بعيدا عنهم ، ولكن لا ، والحمد لله ، لم يعرفه أحد من المسارة ، حتى الذين يعرفونه لن يتعرفوا عليه حين برونه ، حقا أنه خلال هذه الغيبة الطويلة قد تغر شكله ، وكان اذا

طونبو كروج ١٥٨

تأمل صورته في المرآة ، يشعر أنه يتخفى بأمان وراء قناع ، هو وجهه الذي عركته الايام قبل الأوان . طلب فطوره وبعد ان تناوله نزل ومر نحت نظرة تقيس قدره يصوبها له البواب والرجل المهيب لابس السواد واجناز الدهليز ومرق بين الأسدين وبدأ يتكشف للهواء الطلق .

الى أين يذهب ؟ لا يدري ، حاله اليوم مثل حاله بالأمس ، يعجب بما يحبط به من مظاهر الاصلية العتيقة والالفة المنصلة منذ ماضٍ سحيق ، البادية على السقوف المحنية والأبراج والبواكى والنافورات . لم يكد يشعر مرة أخرى بطس الريح لوجهه بقوة سائقا اليه من بعيد أحلاما يعطر وديع وحريف معا ، لم يكد يشعر بهذا كله متى ارتبت ستارة كأنها نسجها من الضباب فوق قلبه وغلفت أوتاره ، ارتخت عضلات وجهه وهذات نظرتة وأخذ يوجه الى الناس والأشياء نظرة أصبحت فجأة باردة الى أين هو ذاهب ؟ يبدو له ان هناك علاقة بين الاتجاه الذى يقصده وتلك الأحلام الحزينة المليئة بالحسرات التى طافت به فى ليلته ، أنه متجه نحو السوق ، مارا تحت بواكى دار البلدية ، حيث أن الجزارين يضعون فى الموازين ذبائحهم بأيديهم ملطخة بالدماء ، حتى وصل الى السوق ، تتوسطه النافورة العالية المدبة ، من الطراز القوطى ، هناك توقف أمام منزل بسيط، غير عريض بحيه، هو ومنازل كثيرة فى المدينة شبه واحد ، له أيضا سقف منحن ، وبقي واقفا أمامه مستغرقا فى تأمله حتى نسي نفسه ، قرأ الاسم المكتوب فوق الباب وجعل نظرنه نعلق قليلا بكل نافذة ثم استدار ببطء لينصرف .

الى أين هو ذاهب ؟ الى بيته ، بيت أسرته ، ولكنه

طونيو كروجر ١٥٩

سلك اليه طريقا ملففا ، امتد الى نزهة خارج أسوار المدينة ، فلا يزال الوقت مسعا أمامه ، مر بالأسوار عند الطاحونة وعند حي هولشتين وهو يكبس قبعته بقوة فوق رأسه لئلا يطير من دفع رياح هوج ، تعلو منها لأوراق الشجر خشخشة وصرير ، ثم كف عن النزهة خارج الأسوار حين اقترب من محطة المسكة الحديدية ، شاهد قطارا تتوالى نفخانه وهو يسرع في سيره ، تسلى بعد عرياته ومتابعة نظرنه للرجل الجالس في مؤخرة السبنسة ولكنه حين بلغ ميدان الزيزفون توقف عند إحدى القبلات الجميلة القائمة به وظل برهة طويلة يرقب الحديقة والنوافذ ثم طاول هواه فأقبل يحرك باب الحديقة يمينا ويسارا حتى أرفع صريره وبعد ذلك تأمل لحظة يده التي علق بها مسحة من الصدا ، ثم انصرف وابتعد ومر من باب المدينة العتيق القصير الارتفاع وسار حذاء رصيف الميناء ، ثم شق صعدوا من الميناء هذا الطريق الوعر حتى بلغ منزل أسرته . . لا يزال مزورا بكبرياء عن المنازل المجاورة وسطحه يعلو أسطحها ، لونه أغبر ومظهره ناطق بالجد كالعهد به منذ ثلاثة قرون ، وقرا طونيو كروجر عبارة الدعاء المليء بالوقار والتقوى المنقوش بأحرف منظمسة أعلى الباب ، وعمد الى جذب شهيق مديد ، ثم دخل الى الدار ، قلبه يدق بوجل ، خشية أن يفتح أحد الأبواب في الطابق الأرضي ويخرج منه أبوه مرتديا ثيابه التي يذهب بها الى مكتبه ، واضعا قلمه فوق أنفه ، سيتصدى له هذا الأب ويسأله بقسوة عن سبب فساد حياته ، من الطبيعي عنده أن يسمع منه هذا التقرير ، ولكنه مر أمام الأبواب دون أن يعترضه أحد ، الباب المزدوج المؤدى الى الطابق الأعلى لم يكن مغلقا بالضبة والمفتاح ، بل كان مدودا ،

طونيو كروجر ١٦٠

وبدا له أن ترك الباب هكذا اهمال منتقد ، وان خيل له
أيضا أنه هو نفسه أصبح لعبة يلهو بها أحد الأحلام
العابثة التي تبدو فيها الحواجز كأنها ننهدم أمامك من
تلقاء ذاتها فتسير في طريقك بلا عائق بفضل حظ مدهش،
سار في الدهليز الفسيح المكسوة أرضه ببلاط مربع فكان
لوقع أقدامه صوت مسموع ، المطبخ أمامه غارق في
الصمت ، لا تصدر منه نأمة ، ها هو ذا الجدار الذي
يظهر فيه على ارتفاع كبير بروز يتألف هيكله من خشب
خام ولكنه مدهون بعناية واتقان ، هذه هي حجرة
الخدم ، لا سبيل الى الصعود اليهما الا باعتلاء درجات
دائرة متتابعة كدرجات سلم ، وهذا المطلع تستغل به
حجرة الخادم ، فليس في الدهليز مدخل لسلم آخر ،
ولكن لا أثر لأثاث الدهليز — الدواليب الكبيرة والصناديق
المحلاة بنقش بارز وشرع طونيو كروجر — ابن هذه
الدار — يتسلق السلم الفسيح ، لشد على درابزين من
خشب محلى بنقش غائر ومدهون بطلاء أبيض ، وكان
إذا صعد درجة رفع يده عن الدرابزين ليعيد وضعها
عليه وهو يصعد الدرجة التالية كأنها يحاول بتهيب
أن ينشأ من جدد بينه وبين الدرابزين المتين رغم
شيخوخته هذا الألف القديم الذي كان بينهما في أيام خلته،
وحين بلغ باب الطابق الأول توقف عن الصعود اذ كان
فوق الباب لافتة بيضاء مكتوب عليها بخط أسود (المكتبة
الشعبية) مكتبة شعبية ، شغل معنى هذه العبارة
فكرة ، ما دخل الشعب وما دخل مكتبته هنا .. دفع
الباب فسمع دوى صوت يهيب به (ادخل) فاطاع
الأمر وقد أمنأ قلبه بالهواجس ، أجال بصره فروعه
ما حدث من انقلاب الحال ، الطابق مؤلف من ثلاث
حجرات متتالية أبوابها كلها مفتوحة على مصاريعها ،

طونيو كروجير ١٦١

على طول الجدران أرفف من خشب أسود نصطف فوقها كتب مجلدة على نسق واحد ، وفي كل حجرة يجلس رجل غليان وراء مسند من الخشب كأنه مكتب ، منشغلا بكتابة كلام على ورق ، الرجلان الجالسان على بعد في الحجرة الثانية والثالثة فقد رأهما لا يمنحانه الا نظرة خاطفة ، أما القريب منهم المشرف على الحجرة الاولى فقد نهض باندفاع من جلسته واعند يديه على سطح المكتب ومد رأسه الى الامام وكور فمه ورفع حاجبيه وأخذ يحدق في الزائر القادم ، قال له طونيو كروجير دون أن يسترد نظرتة الدائرة على رفوف الكتب : — عفوا ، اننى غريب عن هذه المدينة ، جئت لزيارتها ، أهنا اذن مقر المكتبة الشعبية ، انسمح لى أن ألقى نظرة على محتوياتها .

أجابہ الموظف وعيناه تطرفان بسرعة أشد : — بكل تأكيد طبعاً ، الدخول هنا بالمجان ، نخرج على راحتك ، هل تريد قائمة الكتب ؟

— شكراً ، سأعرف بسهولة أين أبحث عن طلباتى . وأخذ يمر امام الرفوف زاعماً انه يقرأ بتمعن أسماءها المطبوعة على الأغلفة ، وأخيراً تناول كتاباً وفتحه تحت ضوء نافذة وقف بالقرب منها . هذه هي الحجرة التى كانوا يتناولون فيها وجبة الفطور لا فى حجره الأكل الكبيرة فى الطابق الأعلى ، وهى مزينة بصف من تمانيل بيضاء لأرباب الأغريق ، وكأن بياضها تنفثه زرقه كساء الجدران ، الحجرة البالية فى المكتبة كانت حجرة النوم ، هى التى ماتت فيها جدته لأمه بعد صراع مرير مع الموت رغم شبخوختها ، ذلك أنها كانت تحب الحفلات وتتعلق بالملذات وتتشبث بالحياة ومرة الأيام فاذا فى الحجرة ذاتها بلفظ أبوه آخر أنفاسه ، السيد المهيب المستمسك

طونيو كروج ١٦٢

بالأصول ، المكتسى وجهه دائما بمسحة من الكتابة ودلائل
 انشغال الفكر ، كما لا تخلو عروة سترته من زهرة برية ،
 رقد طونيو عند قدمى الجثة ، عيناه ملتهبتان وقد أسلم
 قلبه بما وسعه الجهد والاخلاص ليغمره حبه لأبيه
 وحزنه عليه ، وركعت أمه أيضا بجانب الفراش ،
 أمه المتقدة العواطف ، تسيل الدموع من عينيها ، ثم
 اذا بها بعد وقت ليس بالطويل تقترب بهذا الفنان من
 أهل الجنوب وترافقه في رحلاته الى بلاد ذات سماء
 زرقاء ، أما الحجرة الثالثة في المكتبة ، آخر الحجرات ،
 المزدحمة الآن بالمجلدات تحت حراسة رجل غلبان فقد
 كانت لوقت طويل حجرته الخاصة ، هي التي يأوى اليها
 اذا رجع من المدرسة بعد أن يقوم بجولة في المدينة كالتي
 قام بها اليوم منذ قليل ، في ركن من الحجرة مكتبه ،
 في درج منه يخفى أوائل قصائده ، صياغتها فجأة بسبب
 اندلاق عاطفتها ، ولكن شجرة الجوز ، ما الذي جرى
 لها ، وجف قلبه فجأة ، وألقى بنظرة من النافذة ،
 الحديقة أصبحت خرابا ولكن شجرة الجوز لا تزال في
 مكانها ، ولا تزال أوراقها تخشخش في مهب الريح ،
 ترك نظريته تلم من جديد بالكتاب الذي تحمله يده ،
 مخنارات من الشعر بعرفهما حق المعرفة ، مسّت
 نظريته فوق الأسطر السود يقرأ الشعر بيتا بعد بيت ،
 ينبثق من الكلمات فيض لفن رائع يتساعد بفضل وقوة
 الإبداع وبلوغه الذروة التي يحدث عندها فيها أثره بأن
 تشتد قبضته علينا ثم تطلقنا على نحو يبرهن به من
 جديد على براعته . أعاد الكتاب الى الرف وهو يقول
 في سره ، هذا شعر حسن ، ثم استدار فلحظ أن أمين
 المكتبة لا يزال واقفا وعيناه تطرفان أينما على نحو ينم
 أنه يهم بالكلام ثم يتراجع بنصيحة من شكوك يتداولها

طونيو كروجر ١٦٢

في ذهنه . قال له طونيو كروجر :

— لديكم كتب قيمة ، القيت على الرفوف نظرة سريعة ،
شكرا لك يا سيدى ، انى منصرف واستودعك الله .

ثم اتجه الى الباب ، لا يريه الا أن يخرج منه
خلصة ، فقد كان واثقا أن أمين المكتبة سيظل برهة
أخرى واقفا وعيناه تطرفان .

انقطعت الآن رغبته في متابعة استكشافاته ، يكفيه
أنه زار بيت الأسرة ، ففى الطابق الأعلى الذى يؤدى
الى حجراته الفسيحة دهليز يزدان بالأعمدة يسكن أناس
غريباء ، أدرك ذلك فقد رأى أن السلم انتهى الى باب
نصفه من زجاج لم يكن موجودا أيام صباه وقد كتب
فوقه اسم ما .

انصرف واجتاز الدهليز فرن فيه وقع خطاه وغادر
بيت الأسرة ، وفى ركن مطعم بلع وهو غارق فى أفكاره
طعاما غليظا دسما تم عاد الى الفندق . قال للمستخدم
صاحب السترة السوداء :

— حققت رغبتي فى زيارة المدينة ، وسأسافر هذا
المساء .

أمر أن تعد له فاتورة الحساب وعربة تنقله الى
اليناء ليركب السفينة البحرية الى الدانمرك ، ثم صعد
الى حجراته وجلس الى المنضدة وظل فترة متجمدا فادار
ظهره مسندا خده الى كفه ، ملقيا الى السجادة نظرة
تائهة ، وبعد ذلك دفع حسابه ورتب حوائجه وخبر بأن
العربة قد وصلت فى الساعة التى حددها فاستعد للنزول
وجد المستخدم صاحب السترة السوداء فى انتظاره فى
اسفل السلم قال له وهو يدفع بينصره كمى قميصه
فى ذراعى سترته .

طونيو كروجر ١٦٤

— لا تؤاخذنا يا سيدى اذا اضطررنا لاحتجاجك لبرهة وجيزة ، وان السيد سيهاس صاحب الفندق يريد أن يقول لك كلمتين ، هذا اجراء شلكى ليس الا ، انه وراء هذا الحاجز ، فتفضل واصحبنى ، انك لن ترى أحدا غير السيد سيهاس صاحب الفندق .

وقاده بحركات عديدة الى نهاية البهو حيث وجد السيد سيهاس فى انتظاره فعلا ، وطونيو كروجر يعرفه منذ صباه ، رجل قصر بدين ، مقوس الساقين ، شعره القصير الذى يزحف الى صدغيه قد دب فيه الشيب ، لا يزال يلبس كالمعهد به من قديم قطنسوة من صوف أخضر ، لم يكن وحده ، بجانبه وأمام درج للكتابة مثبت بالجدار وقف شرطى له خوذة تعلو رأسه ، ويده اليمنى من داخل القفاز الأبيض تضغط على ورقة مكتوبة بحبر متعدد الألوان موضوعة فوق سطح الدرج ، استدار الى طونيو وصوب اليه نظرة الشرطى الشريف الأمين كأنه يتوقع من طونيو أن يتمنى من وقع هذه النظرة أن تنشق الأرض وتبلعه .

نقل طونيو نظرته بين الرجلين وآثر الصبر والتريث الى أن يسمع ما يقولانه له .

أخيرا سأله الشرطى بصوت عريض وسرعة معتدلة: — أقادم أنت من ميونيخ .

رد عليه بالإيجاب فعاد الشرطى يسأله :

— اذهب أنت الى كوينهاجن .

— نعم سأسافر الى مصيف على شاطئ البحر فى الدانمرك .

— مصيف على البحر ، طيب ، أرنا مستندات اثبات شخصيتك .

ونطق بكلمة « أرنا » بنغمة فوز عظيمة يسعده كل

طونيو كروجير ١٦٥

السعادة .

استغرب السؤال فأبعد شيء عن خاطره هذه المستندات التي نثبت شخصيته ، أخرج المحفظة التي يحملها في جيبه وفتشها فلم يجد بها الا قوائم تم سدادها وأوراقا من مسودات طباعة لقصة من تأليفه حملها ليصححها حين يستقر في المصيف . لم يكن معه مستند يثبت شخصيته ، انه يكره كل صلة بالسلطات الحكومية ولم يطلب منها قط ان تصدر له جواز سفر . فقال : — آسف ، اننى أتثقل وليس معى مستندات تثبت شخصيتى .

اجابه الشرطى :

— آه ! انن ما هو اسمك يا ترى ..
ذكر له طونيو اسمه فقال الشرطى وقد صلبت قامته فجأة واتسع منخراه الى آخر مدى :
— أهذه هى الحقيقة .
— نعم ، هذه هى الحقيقة .
— وما هى صنعتك يا نرى ..
ابتلع طونيو غصة حلقة وأبان عن صنعته بلهجة حادة قاطعة .

رفع السيد سيناس رأسه ونظر اليه باستغراب وقال الشرطى وهو يتنحنح :

— انن أنت تقرر بأنك لست هذا الرجل الذى اسمه .
ونطق الشرطى باسم ولكنه تلثم ، فاسترشد بالورقة المكتوبة جبر مختلط الألوان فاذا به ينجح بفضل تمهله فى نطق اسم عجيب فى تتابع حروفه وفى جرسه الرومانسى الذى يتجمع فيه — كأنما للمعابثة — جرس أسماء من شعوب متعددة ، لا عجب ان طونيو نسى هذا الاسم بعد لحظات قليلة ، واستطرد الشرطى يقول :

طونيو كروجى ١٦٦

— هذا الرجل تبحث عنه شرطة ميونيخ لأنه متهم بالنصب وجرائم أخرى ، ولعله هرب الى الدانمرك اذن أنت باقرارك لست هذا الرجل ..

— اقرار أو لا اقرار .. لست هذا الرجل .
وهز طونيو كتفيه اعرابا عن ضيقه بهذا العبث .
فكانت لهذه الحركة وقع ملحوظ على الرجلين . فقال الشرطى :

— على رسلك ، لا تنس أنك لم تبرز لنا أى مستند تثبت لنا شخصيتك .

تأخذ السيد سيناس عاملا على تهدة الجو وقال :
— كل هذا الاستجواب ما هو الا اجراء شكلى ، لا شئ غير ذلك . ينبغى لك أن نذكر أنه موظف يؤدى واجبه المفروض عليه ، فحبذا لو استطعت أن تثبت لنا شخصيتك بمستند .

وصمت ثلاثتهم ، هل ينهى هذه الواقعة بأن يكشف لهم عن هويته ويقول للسيد سيناس أنه ليس نصابا ، مصدر رزقه مجهول ، ولا من رجال الفجر ، مولده فى عربة خضراء وانما هو ابن المرحوم السيد كروجى ، القنصل ، انه من أسرة كروجى ولكنه لم يشعر برغبة فى الافصاح ، يكتفيهم أنه ذكر لهم اسمه ، فرجال الشرطة على كل حال مسئولون عن حفظ الأمن ، ولهم الحق فى استجوابه ، بل انه يقرهم عليه الى حد ما ، ولكن لماذا يخبرهم عن أصله وفصله . ما جدوى ذلك ، هز كتفيه من جديد وألجم لسانه .
سأله الشرطى :

— وما هى هذه الأوراق التى وجدتتها فى محفظتك .

— مسودات مطبوعة تنتظر التصحيح .

— كيف ، دعنى أراها :

طونيو كروجر ١٦٧

مد اليه الاوراق ، فردها الشرطى على سطح الدرج
وشرع يقرأها واقترب منه السيد سيناس يشترك معه
فى القراءة ، ويبقى طونيو بطل من فوق كتفیهما ليرى مدى
مضيئهما فى قراءة القصة وراى أنهما بلغا فقرة صاعها
بتوفيق يتحقق به وقع الأثر المطلوب على القارىء ،
وشعر بالرضاء على نفسه وقال :

— تريان أن هذه القصة تحمل اسمى ، فى من
تأليفى أنا وسننشر عما قريب ، أوضح لكم هذا الكلام .
قال السيد سيناس بلهجة قاطعة :
— طيب ، هذا بكفينا .

وجمع الاوراق واعادها الى طونيو وقال للشرطى :
— هذا يكفينا با بترسينى .
وكرر هذه العبارة بعزم وسرعة وعيناه نظرفان خلصة
ويهز رأسه دلالة على أنه رافض أن يقول أو أن يسمع
كلمة أخرى ، وأضاف :

— ينبغى أن لا نحتجز هذا السيد أطول من ذلك
فالعربة تنتظره ، واناشدك با سيدى أن تغفر لنا
ازعاجنا لك قليلا ، ان الشرطى فعل ما فعلا مأدية
لواجبه المغروض عليه وقد نبهته من فوري أنه يخلىء
الهدف .

لطونيو سؤال يجمع فى صدره :
— أترانى اصدق كلامك ؟

أما الشرطى فقد بدا عليه أنه غير مقتنع بإجابة
طونيو كل الاقتناع ، فأخذ يتحدث عن تحقيق ورد فيه
ذكر هذا الرجل النصاب وحمله لمستندات زائفة . واكن
السيد سيناز قاد سيفه عبر الدليلز وهو يكرر له
اعتذاره وسار معه بين تمثالى الاسدين الى حث نقف

طونيو كروجىر ١٦٨

العربة وقفل بنفسه بابها وهو يحيط طونيو بكل مظاهر الاحترام ، وقعت العربة الحنطور المثرة للضحك بارتفاع سقفها واتساع بطنها وهى تتهادى بين صرير حديدتها وارتجاج زجاجها. وسلكت الطريق المنحدر حتى بلغت الميناء .

هذه هى حكاية اقامة طونيو كروجىر العجيبة فى المدينة التى كان بها مولده .

الفصل السابع

كان الليل قد أرخى سناره وارنفع وارنفع القمر سابحا في ضوء فضي حين خرجت سفينة طونيو كروجر الى عرض البحر ، وقف في مقدمة السفينة مندترا بمعطفه بسبب الرياح التي اشد هبوبها ، وخفض بصره ليغوص به في الأمواج الداكنة تجمع بين قوه البدن ونعومة الجلد ، تتواتب واحدة فوق أخرى ثم تتصانح في اصطفاق يعقبه تفرق في انجاهات غير متوقعة ، ينلأ الزبد فوقها فجأة ، ان نفسه كانت قد انكسرت قليلا للحادثة التي وقعت له في الفندق ، وأين ؟ في بلدته ، مسقط رأسه ، أرادوا القبض عليه لانه نصاب ، ومع ذلك فانه يسلم بأن الذي حدث له كان له مبرر من بعض الوجوه ، ها هو ذا حين طلع الى السفينة أخذ — كما كان يفعل وهو سبى في صحبة أبيه — برقب البضائع المصدرة عند انزالها الى جوف السفينة العميق وسط صياح بحارة بمخلف لهجات أهل اسكاندنبافيا ، بضائع لا تقتصر على بالات ومسناديق بل فيها أيضا نهر من البنغال ودب من القطب الشمالى ، كلاهما محبوس في قفص عليه عوارض واقفال غليظة ، مألها ولا ريب الى سيرك فى الدانمرك ، تسلى بهذه المشاهد وتمتع بها ، وحين مرقت السفينة بين الشاطئين فوق مياه النهر كان قد نسى كل النسيان لقاءه بالشرطى بترسون واستجوابه له ، أما ما حدث له قبل ذلك : أحلامه بالليل المليئة بالأحزان

٧ — لاعب الشطرنج

طونيو كروجر ١٧٠

والحسرات والجولة التي قام بها في بلدته ، مسقط رأسه ، وشجرة الجوز العتيقة — كل ذلك عاد الى ذاكرته واستولى على قلبه .

ينفسح البحر الآن أمام السفينة انه يبصر الآن هذا (البلاج) الصغير الذي طالما أنصت فيه وهو صبي لتمتمة البحر بأحلام الصيف وراقب منه لمعة الضفار وأضواء الفندق الذي كان ينزل به هو وأبواه ، ها هي سفينته تمخر الآن في بحر البلطيق ، قاوم بادناء رأسه رياحا عنيفة مملحة تهب على الوجوه طليقة واثبة فوق العواثق ، تصك الأذان وتصيب الرؤوس بدوار لذيذ وخدر خفيف ، فينسى المرء ما مر به من شرور وآلام وجرائر ، هذا هو حال طونيو ، كل ترق له كل عزم له ذاب في نشوة هذا الخدر الذي سرى في أعصابه ، يصل الى سمعه هدير الأمواج واصطفافها وتشنجاتها فيخيل اليه أنه يسمع اشتداد خشخشة أوراق شجرة الجوز ، وصرير باب الحديقة ، وظل هكذا سارحا في أفكاره وحلكة الليل تتكاثف شيئا فشيئا .

— ما أبهى النجوم يا ربي !

توجه اليه بهذه الكلمات صوت أجش وله غنة ، كأنه ينبعث من جوف برميل ، انه يعرف هذا الصوت ، هو صوت شاب يتراوح لون شعره بين شقره وحمرة ، جاءت جلسته الى مائدة الطعام بجواره ، ثيابه بسيطة ، أهدابه حمر ، له منظر رجل مشرق الطلعة ومقرور معافكأنها عليه جلوه الخارج لتوه من الحمام ، حركانه تنم عن توتر أعصابه ومراقبته لنفسه ، يتناول كميات ضخمة من الجمبرى المقلى بالببيض ، ها هو ذا يستند الى سمر السفينة بجوار طونيو ويرفع بصره للسماء وهو يقبض على ذقنه بين ابهامه وسبابته ، هو لاشك

طونيو كروجير ١٧١.

في حالة طارئة عليه ، يميل فيها الى التأمل والاستعبار ،
ويجد عندها أن جميع السدود بين الناس قد انهضت
وأن القلب بفيض بأشجانه ويروح بها حتى للغرباء
وأن الفم ينطق بأشياء لو صدرت منه في غير تلك الآونة
لأحس من أجلها بخجل شديد .

— تأمل قليلا هذه النجوم يا سيدي ، ها هي ذى في
مواقعها تتألق وتنلأ وتتأثر حتى تهلأ السماء ، قل لى
بريك ، حين يرفع المرء بصره الى السماء وهو مقتنع بأن
نجوم كثيرة حجمها أكبر من حجم الأرض مائة مره أملا
يمتلئ قلبه بالخشوع والاستعبار ، نحن سكان الأرض
قد اخترعنا التليفون والتلغراف وحققنا انتصارات العلم
في العصر الحديث ، نعم ، هذا حق ، ولكن حين نرفع
بصرنا للسماء لا يسعنا الا أن نقر ونعترف بأننا لسنا
سوى حشرات ، حشرات حقيرة ليس غير .
أحنى رأسه على صدره بعد رفعها للسماء ، دلالة
على خشوعه واستغفاره واستطرد يقول :
— نعم ، لسنا سوى حشرات .

وناجى طونيو نفسه قائلا : هذا رجل هيهات أن تكون
له سليقة الأديب ، ثم استعادت ذاكرته على الفور نصا
كان قد قرأه لأحد كتاب فرنسا يشرح فيه مفهومه للكون
والناس والوجود وقال في سره : ما هي في نظري الا
ثرثرة فارغة ... أما عن ملاحظات جاره الشاب التي
انبعثت من أعماق قلبه واحساسه فقد أجاب عليها
بما وسعه وأجب المجاملة ، ومضيا يتبادلان الأحاديث
وهما مستندان الى سور السفينة ، يمدان نظريتهما الى
عباب ليل بهيم تتراقص عليه أضواء عابرة ، واتضح
أن الشاب تاجر من هامبورج يمضى أجازته السنوية في
هذه الرحلة الترفيهية وكان من كلامه لطنو :
هذه الرحلة الترفيهية وكان من كلامه لطنو :

ملونو كروج ١٧٢

— قلت لنفسي ، هيا ، جرب واركب السفينة الى كوبنهاجن ، وها انت ذا ترى اننى فعلت ، وكل الذى مر بى سرنى ، ولكن لا اظن انهم احسنوا بتققيم طبق عجة البيض بالجبرى فى وجبة العشاء ، فستصادفنا عاصفة هوجاء هذه الليلة ، هذا هو ما قاله لى الريان بلسانه ومن حشا بطنه بهذا الطعام الغليظ سيكون منظره اذا قامت العاصفة مثيرا للرثاء لا للضحك وحده .

نزلت هذه الثثرة الفارغة على قلب طونيو بردا وسلاما وشعر بعطاف وود لمحلته وأجابه :

— نعم ، وجبات الطعام فى بلاد الشمال ثقيلة عادة ، ومن جرائرها البدانة والكآبة .

كرر الشاب وراءه كلمة الكآبة ونظر اليه باستغراب وسأله فجأة :

— أغريب أنت عن بلادنا .

— نعم ، انبنى انتمى الى بلاد بعيدة .

وأرشف قوله بإشارة من ذراعه تنبىء عن البعد ولكن تترك مداه غامضا ، أجابه الشاب :

— حقا لقد صدقت فى حديثك عن الكآبة ، وأن هذه الكآبة تركبني كأنما على الدوام ، وخاصة فى الليالى

التي تماثل ليلتنا هذه ، حين تتلأأ النجوم فى السماء .

واحتمل الشاب من جديد نقنه بين سبابته وابهامه ،

وناجى طونيو كروج نفسه قائلا :

— لا ريب أنه لا يجد وسيلة للفضفضة بمكنون نفسه الا بنظم الشعر ، ولكنه هو الشعر الذى ينلمه تاجر لا يخرج من يده الا أن يريق على الورق أحاسيس قلبه فى تعبير خام ، مباشر .

وتقدم الليل واشتد عواء الريح فلم يعد أحدهما يفلح

طونيو كروج ١٧٣

فى اسماع كلامه للآخر ، لم يبق الا الانصراف واللجوء الى الفراش ، هكذا فعلا بعد ان تبادلنا تحية المساء .
تمدد طونيو كروج فوق فراشه الضيق فى قمرته ، ولكن الراحة استعصت عليه ، أعصابه متوترة لئائرها بعنف الرياح ولذع نفتها لخياشيمه ، وهصر قلبه تشوف فنهضى لاحساس وثيق يحل به فيسعدده ، ثم ان رجة السفينة وهى تهوى من قمة جبل من الأمواج ومقعقة الرفاص وقد انفلت خارج المساء وتعبرى أصابه بغتبان وميل الى القيء ، فأتى من جديد لبس ملابسه وطلع الى ظهر السفينة . ليستنشق الهواء الطلق .

سحب تمرق أمام القمر ، والبحر يتراقص والأمواج لا تقبل مكررة متماثلة ، فالى مد البصر حتى نهاية الأفق وتحت ذنبه ضوء باهت مشهد بحر ممزق معذب تجلده سياطة خفيفة ، تتواهب منه السنة عملاقة كأنها السنة لهيب نار متأججة ، الأمواج تؤلف أشكالا مفرطة فى تباين الرسم تتجاوز غرابتها كل خيال ، تعلو قمة وتطل منها على هوة سحيقة والزيد الأبيض كأنها يطوح به فى كل اتجاه ذراع قوى جبار محب للمعابثة . والسفينة تتقدم بعناء شديد ، تشق طريقها وسط الضباب وهى نئن وتترنج على الجنبيين ، بتسنى له بين الحين والحين سماع زمجرة الدب والنمر المحبوسين فى قفصهما فى قاع السفينة من شدة عذابهما من العاصفة . ها هو ذا رجل يحتفى بمعطف من الجلد وغطاء يلف به رأسه ، يحمل فانوسا مربوطا الى وسطه يذرع سطح السفينة جيئة وذهابا وهو يباعد بين ساقيه محافظا على توازنه بصعوبة ، وفى مؤخرة السفينة وقف الشاب القادم من هامبورج وقد تدلت رأسه من فوق سور السفينة وهو يعانى من دوار البحر عناء شديدا . وحين أبصر طونيو

طونيو كروجر ١٧٤

كروجر التفت اليه وقال بصوت خافت منخازل :

— انظر يا سيدى الى بوره الطبيعة .

ثم ما لبث أن قطع كلامه واستدار ليحنى رأسه من جديد من فوق سور السفينة .

تعلق طونيو كروجر بحبل مشدود غاية الشد وأخذ يتأمل هذه العبوات المنجرة النني نطالعه بها الطبيعة ، فانبعتت منه صيحة جذل بدت له انها لقوتها قد طغت على هدير العاصفة واصطحاب الامواج ، كأنها ترنم قلبه بنشيد ينظمه للبحر يجلجل فيه حماس الحب ، يا بحر ، يارفيق الصبى ، ها نحن نلتقى من جديد، بحاول بهذه الكلمات أن ينظم نشيده ولكن نظمته انقطع ، لا خاتمة ولا شكل محدد له أنه ليس ابداعا متكاملا وليد تأمل في سكونية ، ذلك أن قلبه في تلك اللحظة كان لايشغله الا التمتع بالحياة .

مكث هكذا برهة طويلة ثم رقد فوق دكة من الخشب بجانب مرصد الريان وأخذ يتأمل السماء وضوء نجومها يلمع ويخفت ، حتى أخذته غفوة قصيرة ، رذاذ بارد من زبد الامواج لفح وجهه فأحس في تأرجحه بين اليقظة والنام كأن يدا رفيقة نربت عليه .

بدت للعيون شواطىء من صخور طباشيرية ننحدر صفحتها بخط مستقيم فبدت نحت ضوء العمر كأنها تنتمى الى عالم الاشباح ، السفينة تقترب من جزيرة مصرية ، طغى النعاس من جديد على طونيو كروجر ، يستنقظ كلما خبط رذاذ مملح من زبد الامواج صفحة وجهه فانشد من وقعه جلده ، وحين أصبح في تمام اليقظة كان النهار قد أشرق بهواء منعش وضوء رمادى باهت ، وكان البحر قد هدأ ، وعلى مائدة العشاء التقى بالتاجر الشاب ورأى وجهه تطفئ عليه حمرة الخجل طغيانا شديدا ،

طونيو كروجر ١٧٥

خجل ولا ريب لأنه كشف في مسر الظلام عن مكون قلبه ونطق بكلام يلام عليه لأنه قلده به الشعراء ، وأخذ الشاب يبرم شاربه الأشقر بأصابعه الخمس كلها ليرفع طرفيه ورمى الى طونيو تحية مقنضبة كأنها نحية الجند تنطق باعزامه أن يتجنب طونيو بعد ذلك بحرص شديد .

ونزل طونيو في الدانمرك ، وأقام في كوبنهاجن ، يمنح البقشيش لكل من بدا له أنه بسحقه ، وكان اذا خرج من الحجرة التي استأجرها في احد الفنادق تجول في المدينة نحو ثلاث ساعات وهو يسترشد بكباب دليل السياح الذي يظل يمسكه في يده مفتوحا فكان تصرفه تصرف رجل غريب بزور المدينة ويريد أن يتنفع من هذه الزيارة ما أمكنه ، أطلال النظر الى السوق الملكي الجديد وتأمل بتوقير أغلب الكنائس ووقف طويلا أمام النماثيل العريقة الرشيقة وصعد الى قمة البرج وزار في الربف قصور النبلاء القديمة وقضى ليلتين في ضاحية ريفولي الجميلة ولكن هذه المشاهد لم تكن في حقيقة الأمر كل ما وعته نظرتة ، اذ كان وهو يمر بمنازل بعضها يشبه المنازل العتيقة في بلدته تمام الشبه يطالع على أبوابها أسماء مألوفة له منذ صباه ، نتم في حساباته عن طباع رقيقة وخلال كريمة وتنكتم في الوقت ذاته أنبنا وبحسرا على نعيم عرفته في سالف الزمان ، يسر مأملا ماحوله ، يسند وهو غارق في الفكر من هواء بحرى رطب أنفاسا طويلة تملأ رئتيه الوجوه التي كانت تتراعى له في أحلامه العجيبة المليئة بالحسرة والألم التي طافت به ليلة أن بات أبان سفره في بلاده موطن رأسه — هذه الوجوه يراها الآن من حوله ، العين لها الزرقه ذاتها والشعر له اللون الأشقر ذاته ، فهذه وبلك من جنس واحد ، متماثلة في استدارتها ، وكان يحب له وهو سائر في

١٧٦ طونيو كروجر

الطرقات أن تكفيه لحة من عين لعابر أو جرس كلمة ينطق بها لسانه لكي يرتج قلبه ارتجاجا عنيقا .
هيهات أن يقوى على البقاء طويلا في تلك المدينة المرحية النابضة بالحياة إذ كان ينابه قلق وديع ومجنون معا بعضه من صنع الذكريات وبعضه وليد أمل وترقب ، من أسبابه أيضا لهفته علي أن يباح له أن ينمى براحة في مكان ما ، في شاطئ مصيف مثلا ، ثم يكف عن القيام بدور السائح النهم الى المعرفة .

ركب السفينة مرة أخرى فأبحرت به نحو الشمال تحت سماء ملبدة بالسحب وفوق مياه داكنة بل ويميل لونها الى السواد . ومرت بالقرب من زيلاند واتجهت الى مجينة هلسنجر ولم نكد قدمه تظا الأرض حتى استقل عربية سارت به قرابة الساعة بحذاء البحر في طريق لا ينقطع ارتفاعه فوق الشاطئ حتى وصل الى هدفه ، عنده وحده صدق تحقيق مطمحه ، انه الفندق الصغير ، ذو الجدران البيض والنوافذ الخضر ، يقوم وسط محلة من بيوت واطئة متراخمة وبرج الفندق بكسوته الخشبية يواجه البلاج وساحل السويد ، صرف العربية واحتل الحجرة الشرحة التي كانت محجوزة له وأخذ يستف متاعه في دواليها وقد اعتزم أن يقضى في هذا الفندق فترة من الوقت .

الفصل الثامن

كان شهر سبتمبر قد انتصف ، ليس في الفندق نزلاء عديدون ، تناول الوجبات في الدور الأرضي ، في حجرة الأكل الفسيحة ، سقفاها محمول على عروق متوازية ونوافذها الطويلة تنفتح على الشرفة المسورة بالزجاج والمطلّة على البحر ، تترأس المائدة صاحبة الفندق وهي امرأة عانس ، شعرها أبيض وانسان عينيها باهت لم يتجدد له لون ، وخداها عليهما مسحة وردية ، صوتها خافت ، وكلامها سريع كأنه زقزقة عصافير ، لا ينفك لها حرص على أن يكون ليدبها بجلدهما الأحمر فوق مفرش المائدة وضع حسن لا يكرهها ، يزاملها رجل شيخ ، مدكوك الرقبة ، له لحية رمادية مقصوفة كلحية البحارة ووجه يميل لونه الى الزرقة الداكنة ، أنه تاجر أسماك من أهل البلد ، ويعرف الالمائية ، يبدو عليه أنه يعاني من ضغط الدم وأن الفالج يتهدده فانفاسه قصيرة متقطعة ، يمد بين الحين والحين سبابته المحلاة بخاتم ثمين نحو أحد منخريه ليسده فيسلك أنفاسه في المنخر الآخر وهو ينفخها بقوة ولم يكن أقبل من هذا اهتماما وحفاوة بزجاجة الخمر الموضوعة أمامه سواء في غدائه وعشائه وفطوره ، لا نزلاء في الفندق سوى ثلاثة من الشبان الأمريكان ، كلهم طوال ، هم في سحبة أستاذ لهم دابه ان يعدل في تستر وضع

طونيو كروجر ١٧٨

فوق أنفه ، ويلعب معهم الكره طوال النهار ،
 لا يميزه فتشعرهم بين الحمرة والشقرة ، ينوسلهم
 رق يقسمه على الجنبيين بالساوى ، وجوههم
 ستنزة جامدة ، معرفتهم بلغة البلد مقنصرة على بضعة
 الفاظ ينسونها فى كلامهم بالانجليزية لا للمشاركة فى
 الحديث بل لاستقضاء مطالبهم على مائدة الطعام ،
 وهم لا يشربون الا الماء وهو غير ملج .
 لم يكن بهفو أن تكون له على مائدة الطعام محبة
 تختلف عن هؤلاء الشبان ، أمنعه أن يخلو الى نفسه
 فى سلام ، ملقيا سمعه الى مخارج الحروف الحلقية
 فى اللغة الدانمركية وما ينضمه احاديث صاحبة
 الفندق وتاجر الاسماك من حروف مد بينه او مستورة ،
 نوجه مرة او مرتين بالكلام الى تاجر الاسماك وجعله
 مقصورا على حالة الطقس ، تم نهض ليعبر الشرفة
 الى الشاطئ الذى كان قد رقد فوق رماله بالنهار
 ساعات طويلة ، للجو هنا فى بعض الأحيان سفاء
 لا يعهد الا فى الصيف ، البحر ساكن كسول ، أملس
 السطح ، ملون هنا بصبغة بين زرقاء وخضراء ،
 ملون هناك بصبغة تميل الى الاحمرار ، تتراقص
 فوق مياهه أطراف أنسواء فضية ، الأعشاب البحرية
 ملقاة على الشاطئ وقد جفت ، ومجموعات من
 قنديل البحر طافية فوق سطح البحر ، فى الجو شئ
 من رائحة عطن وعفن وشئ من رائحة القار المطلى
 به قارب السيدين الذى كان طونيو يسند اليه
 ظهره وهو جالس فوق الرمال على نحو ينيح لاندلته
 أن تمتد فترى البحر امامها فسيحا دون أن تلتقطها
 وحنجزها شواطئ الدانمرك ، لا شئ يعنيه من
 هذا كله ما دام يملأ رثبه بنسيم بحرى رطب لطيف ،

طونيو كروجر ١٧١

طاهر ، صاف .

وأقبلت أيام داكنة ، أيام العواصف ، أحت
الأمواج رؤوسها كالنور اذا استعد للنطح وانفجعت
في هياج الى الشاطئ تخبطه بعنف وتنحط عليه من
عل وتنثر فوقه الأعشاب والأصداف والحطام وعليها
لمعة البلب ، ووسط جبال الأمواج الشاهقة تحت
سماء ملبدة بالسحب وديان في خضرة باهتة يعلوها
الزبد ، على حين ترى العين هناك ، حيث تختفى
الشمس وراء السحاب يريق ضوء مخملي أبيض
وديع يكتسى به سطح البحر .

مكت طونيو برهة وهو واقف ، تلفه زمجرة
الرياح ، وبأسره قعقعتها التي لا تنقطع ، جلالة
للتعب والاجهاد ، للدوار وزلزلة الحواس ولكن أهـ
انه يحب ذلك كله ، استدار وانصرف ، بدا له ان
كل شيء يحيط به قد أخذ فجأة يريت عليه بحنان
وديع ، وعطف دافئ ، ولكنه يعلم أن البحر من ورائه
له نداء يلاحقه ، يضمه تحياته ووعوده ، كأنما سمع
هذا النداء بأذنيه فعلت شهفته انسامة خفيفة .

تد رحلته الى قلب الدائمك عبر البراري التي
يجثم فوقها جو من الوحدة والوحشة ، ووصل الى
غابات الباول تتعالى أشجارها على السفوح وتنعاقب
المسافات بعيدة ، نلقته الغابات وكان يجلس على
الأغشاب ويسند ظهره الى شجرة بحيث يتراءى له
من بين الشجر جاذب من البحر ، يحمل اليه الريح
أحيانا صوت اصطخاب الأمواج التي تنكسر على
الصخور كأنه صدى سقوط الواح من الخشب بعضها
فوق بعض ، يوافيه من قوم الأشجار تعبق الغربان ،
أجش موحش ، يتكرر بلا تنوع ، يسند داوتيو كتابه

طونيو كروجر ١٨٠

الى ركبتيه ولكنه لا يترا ، حتى ولو سطرنا واحدا ،
يمتعه ويسعده .

ان نغمة النسيان الكامل قد اخذته الآن بين
أحضانها ، يخيل اليه أحيانا أنه تحرر من قيود
الزمان والمكان وحلق في الجو طليقا ثم يحسـ ولكن
في لحظات عابرة فحسب ـ بألم مفاجيء يهصر قلبه ،
انها هبة قصيرة لأذعة لأشواق وحسرات راقدة ،
مبهمة في أعماق قلبه ، فلتبق هكذا ، مبهمة ، لانه
من فرط فتور همته وسرحان فكره لا يجد اقبالا على
بذل جهد لتحديد ماهيتها وتبين مصدرها .

ومضت ايام كثيرة على هذا النحو ، لو سئل كم
هي لما استطاع أن يجيب ، لا يبالى أنه لا يعرف
عدها ، الى أن جاء اليوم الذي حدثت فيه المصادفة ،
حدثت اذ الشمس ساطعة واذ هو بين جمع من
الناس غرباء ، ومع ذلك فان هذه المصادفة لم تثر
في طونيو كروجر دهشة كبيرة .

بأن هذا اليوم بفجر يبشر ، بأن اليوم سيكون يوم عيد
وبهجة ، كانت لطنوئيو يقنلة من نومه مفاجئة في ساعة
مبكرة ، واستيقظ فوجد نفسه فريسة توجس مبهم
لذيذ ، خيل اليه أنه يبصر امامه احدى الخوارق زينة
ساحرة من أنوار عاوية حجرته. نطل منها على البحر
نافذتها وبابها الزجاجي ، يتدلى وسطحها ستار من
الدانتيل الأبيض فيجعلها قسمين : حجرة نوم
وصالون استقبال ، كسوة جدرانها من ورق في لون
هاديء ، وأنابها خفيف في لون فاتح فهي حجرة
يشعشع فيها الضوء ويعمها البشر ، الآن بدت لتلظنه
الخدره بالنعاس كأنها لم تعد تنتمى الى الأرض ، اذ
غمرها على نحو لا يصدق العقل نور وردي مهفف

طونيو كروجر ١٨١

لطيف يجل عن الوصف ، خلع على الجدران والأثاث صيفته الوردية وأضفى على الستارة شيها لصهد نار متوهجة الجمرات ، بلمس منها دفء لأذ ، مكث هكذا برهة قبل أن يفهم سر هذا الذى يحدث أمامه ، اذلقى بنظرة من خلال الباب الزجاجى فرأى أن الشمس قد طلعت في عز بهائها . أيام عديدة مضت والسماء مليدة بالسحب والمطر غزير ، أما الآن فكانها ملاءة مشدودة ، لونها أزرق شاحب يتلألأ صفاؤها فوق البحر وفوق البلد ، وها هو ذا قرص الشمس تعترضه أو تحيط به كسف من سحب في لون الورد أو لون الذهب ، يرتفع بمهابة وجلال فوق البحر وقد تهب بريقه فكانها سرت فيه رعشة وانتقاد ، هكذا بدأ اليوم .

وهب طونيو كروجر وهو حائر البصر وسعيد يلبس نيابه على عجل ، وتناول فطوره قبل الجميع في شرفة حجرة الأكل ، وسبح في البحر مسافة طويلة ثم مشى ساعة على الشاطئ ، ولما عاد أبصر حشدا من سيارات كبيرة تقف أمام باب الفندق ودخل حجرة الطعام فلمح في الدماون المجاور حيث البائىو جمعا غفيرا من الناس ، تشهد ملابسهم بانتمائهم الى الطبقة البورجوازية الصغيرة ، هم جلوس حول موائد مستديرة يشربون البيرة ويأكلون الساندويتش ويتحدثون في حماس ، جمع مؤلف من أسر يأكلها ، فيها السفار والكبار ، ومعهم الاطفال أيضا . ومدت مائدة الطعام ، غنية بسرائح من لحم بسين بارد مدخن ومملح وبين مشوى بنار الفرن ، فلما جلس طونيو كروجر البها سأل جاره عن هؤلاء الناس ، من يكونون . اجابه تاجر الاسماك :

طونيو كروجر ١٨٢.

— هم زوار من بلدة هلسنجر بيتغون النزهة وقضاء السهرة في الرقص ، ليكن الله في عوننا ، لن نهنا هذه الليلة بنوم ، اذ لابد من دبدبة في الرقص وخبط على الطبل وستمند الهيصة ولا ريب الى مطلع الفجر .

هذا اجتماع بين أسر ، مرادها حفلة ونزهة معا ، انتهزوا فرصة اشراق الشمس وتقاسموا النفقة وجاءوا بالقوارب والسيارات . وبعد تناولهم طعام الافطار هنا سيخرجون لتسابعة النزهة ثم يعودون مع الغروب لقضاء السهرة في الرقص ، سترى يا صاحبي ، لن يغمز لنا جفن هذه الليلة ، اجابه طونيو كروجر :

— سنجد لنا شيئا يبهجنا لحسن الحظ .
وانقطع الكلام برهة ، ربة البيت معنية بهيئة يديها المحترتين على مفرش المائدة ، وتاجر الاسماك يسد منخارا وينفخ في منخار ، والشبان الامريكان ثابتة لهم وجوههم المكشرة وعادة شرب الماء غير مثلج، وفجأة وقعت المصادفة ، ها هو ذا هانزهانسن وهامى ذى انجه انجبور هولم يدخلان حجرة الاكل امامه، وكان طونيو يميل بجذعه للوراء مستندا الى ظهر مقعده وقد سرى في بطنه خدر لذيذ بعد تعب سباحته في البحر ومشيته السريعة على الشاطئ ، وكان يأكل شريحة من سمك السالمون المدخن على شطيرة من خبز مقدد ، جلسته قبالة البحر ، وفجأة من خلال الباب المفتوح دخل الاثنان — وقد اشبتكت يده بيدها — في خطو غير متعجل كأنهما في نزهة ، هى كالعهد بها في دروس الرقص امام الأستاذ كناك، في ثوب ينحدر الى سف القدم ، فاتح اللون شفاف

طونيو كروج ١٨٢

مزين برسوم الزهور ، تلف حول كتفها نلعيعة من قماش أبيض شفاف ترسم فتحتها مثلثا على الصدر يكشف عن رقبة في نضارة الشباب ، لفت على معصمها شرائط قبعنها وتركتها تتدلى من يدها ، ربما زاد جسدها نضجا عن ذى قبل ، لها الآن صغيرة بديعة دائره حول رأسها . أما هانزهانسن فهو هو لم يتبدل ، في زى البحارة ، معطف أزرق أزواره ذهبية ، ياقته الطويلة العريضة الزرقاء نهبط فنعطى كتفيه وظهره وكان يمسك بده قلنسوته المائلة أيضا لقلنسوة البحارة ويهزها من شرائطها ، وهو فارغ البال ، وأشاحت أنجه هولم انجبورج عينها اللوزيتين ، ربما لأنها وجدت شيئا من الحرج أن نطالعها أبصار الجمع المحتشد في حجرة الأكل ، أما هانزهانسن فقد ظل مصوبا الى المائدة نظرة تتم عن التحدى واخذ يتفحص الجالسين واحدا بعد آخر على نحو فيه شيء من الاستخفاف والاستفزاز ، أطلق يد زميلته وزادت هزته لقلنسوته ليبدى لهم أى رجل هو ، وهكذا على صفحة يدها بحر أزرق تتراءى لعين طونيو كروج مر الاثنان فاخترقا حجره الأكل من أولها لآخرها واختقيا خارجين من الباب المقابل المؤدى الى الحجرة التى بها البيانو ، حدث هذا بعد الظهر بقليل .

نزلاء الفندق لا يزالون جالسين الى المائدة ولكن القادمين للنزهة الجالسين فى الثرعة والحجرة المجاورة هبوا من مقاعدهم ثم لم يدخل أحد منهم حجره الأكل بل غادروا الفندق من الباب الجانبى ووصلت الى الاسماع أصوات مزاحهم وضحكاتهم وهم يركبون السيارات التى انطلقت واحدة بعد أخرى على الطريق

طونيو كروجر ١٨٤

وتراخى صدى ضجتها قليلا قليلا .

سأل طونيو جاره :

— هل سيعودون للفندق ؟

أجابه تاجر الأسماك :

— نعم وكان الله في عوننا ، قد استأجروا نفرا من

العازفين وسترى ماذا سيحدث لنا ، وأشد البلاء

بلائى لأن حجرتى تقع فوق بهو الرقص .

أجابه طونيو :

— تسلية ظريفة .

ستتاح لنا .

تم نهض وخرج .

أمضى يومه كيفية أيامه ، جالسا عند الشاطئ أو

في الغابة ، فانحا كتابا على ركبتيه وعيناه تطرفان

لقوة الشمس ، لا يدير في رأسه في يومه هذا الا

خاطرا واحدا ، هو أن الجماعة القادمة من المدينة

ستعود للفندق بعد النزهة للاشتراك في حفلة الرقص،

كما توقع تاجر الأسماك ، صرف طونيو ذهنه عن كل

شغل الا ترقبه لهذه الحفلة ببهجة وتلف ممض لم

يعهده من قبل خلال سننى الموات التى مرت به ، حقا

لقد حدث له مرة بفضل تداعى أفكاره أن اتجه ذهنه

بعين الاحساس — ولكن خلال لحظة عابرة — الى

أحد معارفه القدماء ، الى القصصى أداالبرت الذى

كان يعرف ما يريده ، ويذهب الى المقهى ليهرب من

الربيع .

ولكن طونيو ما لبث أن طرح عنه هذا الخاطر وهو

بهز كتفيه استخفافا .

وحلت ظلمة المساء وطونيو كروجر جالس في حجرته ،

ماذا بالطريق المؤدى الى الفندق يزخر من جديد .

طونيو كروج ١٨٥

بالحركة فقد عاد المساهمون في النزهة بل انضم اليهم — قدر ما من مدينة هلسنجر — رفقاء آخرون ، على الدراجات أو في السيارات ووصل الى سمعه صوت تجربة كمان وشبابة عزفها أخف ، كل الظواهر تدل على أن حفلة الرقص ستكون مملعة .

وبدا الأوركسترا الصغير عزف (مارش) ووصلت نغمته الرتيبة خافتة الى سمع طونيو كروج ثم تلا ذلك لحن الرقصة المسماة بالبولونة افتتاحا لحفلة الرقص ، وظل طونيو برهة جالسا في حجرته ينصت للموسيقى ، ولكنه حين سمع لحن رقصة (فالس) هض بهدوء وخرج من حجرته ، الطرقة التي ينفتح عليها بابها يخدمها سلم اضافي يؤدي الى باب جانبي للفندق ، يتيح الوصول الى الشرفة دون مرور باحدى حجرات الدور الأرضي ، سلك طونيو هذا الطريق بهدوء وتلصص كأنه يجوس خلال أرض محرمة ، يتحسس خطاه في العنمة ، أسلم قلبه كله لسحر هذه الألحان التي لها سداجة وهدده لذيدة وهي تصل الى سمعه واضحة جليسة . الشرفة خالية ومعتمة ، الباب المؤدى الى الصالون مفتوح ، والصالون يغمره نور منبعث من مصباحين كبيرين يوقدان بالبترول وتتضاعف قوته بفضل انعكاسه على مرآة مستديرة مثبتة في كل مصباح ، انسل من الباب ، وهو يمشي على أطراف قدميه يدغدغ أعصابه شعور بلذة التلصص والقدرة وهو محتتم بالظلام على تتبع حركات الراقصين تحت الأنوار ، وتلهفت نظرتة على الظفر بمن جاء للبحث عنه .

اشتعلت الحفلة حماسا رغم أنها لم تبدأ الا منذ قليل ذلك أن المشاركين فيها قدموا اليها وهم مشحونون

طونيو كروج ١٨٦

أصلا بالحماس لها بعد ان قضوا يومهم والبال خال في
 صحبة لذيذة مع رفقاء يالفونهم وارفع النكليف بينهم .
 اذا مد طونيو عنقه قلبلا استطاع أن يرى حجرة
 البيانو وقد اجتمع بها عدد من رجال كبار السن يلعبون
 الورق وهم يبخنون ويشربون الخمر ، رجال آخرون
 جالسون على مقاعد كسوتها من القطيفة أما في حلقات
 مع أزواجهم أو في صف يحاذي الجدار ، لا صنعة لهم
 إلا مراقبة الرقص ، يسند كل منهم كفيه فوق ركبتيه
 المنفرجتين وقد انفضت أوداجهم علامة على الرضى ،
 أما الأمهات فكل منهن تضع طاقيّة صغيرة فوق رأسها
 وتعتقد يديها فوق صدرها وتميل برأسها الى جنب ،
 كلهن منصرفات الى مراقبة اولادهن — زهورهن
 الليانة — وهم يتفزون في الرقص ويدورون .

وفوق منصة أعدت بجوار الجدار وقف أفراد
 الأوركسترا ، بين الآلات نغير يبعث نفسه بحذر وبعد
 امتحان وحساب كأنه يهاب جلجلة الصوت التي اختص
 بها ، ومع ذلك فقد أدى بنجاح بعض النغمات .
 وانقسم أهل الحفل ، أما اشتراك بين اثنين في الرقص
 قفزا ودورانا وأما اشتراكهما والذراع في الذراع في
 مشية متراخية حول حجرة الرقص ، لا أحد يرتدى
 من الثياب ما يفرضه الاشتراك في حفلة رقص أصيلة ،
 إنما الكل في ملابس يوم الأحد في الصيف حين يكون
 قضاؤه في نزهة خلوية ، فالرجال يرتدى كل واحد منهم
 سنرة أهل الريف ، يدل مظهرها أن صاحبها كان
 يبقيا طول الأسبوع مصونة ليوم الأحد ، أما الفتيات
 فكل منهن ترتدى نوبا فاتح اللون ، وفي خصرها صحبة
 من زهور برية وكان بين الحضور عدد من الصبيان
 الصغار فأخذوا يتراقصون بعضا مع بعض على هواهم

طونيو كروجير ١٨٧

حتى حين ينقطع العزف . يفترق عن الحاضرين شخص هو بين الرجال نمط عجيب ، طويل الساقين يرتدى سترة حفلات الرقص الأصلية ، فلهذه السترة ذيل يهبط الى الركبتين ، لاشك انه من اعيان المجتمع في الريف ، فهو يتباهى بالمونوكل الذي يزر عليها احدى عينيه ، ويتسريحة شعر في خصلات ملتفة بفضل الكي ، لا شك انه يشغل منصبا هاما كمدير مكتب البريد مثلا ، واتخذ هذا الرجل سمة رئيس حفلة الرقص والمشراف عليها ، تحسبه تقمص شخصية هزلية مألوفة في الالب الدانمركي ، هو مسنجل ، يتصبب عرقا وكأنما خلق ليؤدي هذا الدور ، تحسبه يغطس ويقب في كل مكان في الحفلة ، يتباهى بانهماكه في السهر على النظام وهو يجوب البهو طولا وعرضا ويرفعه لجسده بمهارة حين يقف على أصابع قدميه ويخالف على نحو عجيب وضع خذائيه وهما مديبان ومن جلد لامع ، يرفع ذراعاه في الهواء ويصدر أوامره ويشير الى الأوركسترا ليأخذ في العزف ، ثم يضرب يدا بيد ، كل هذا وشرائط اللوشاح الضخم الملون المتبث حول كتفيه والمستحق له بسبب مكانته ودوره في الحفلة تهتز وراء ظهره ، أما هو فيلقى بين الحين نظرة اعجاب واعتزاز الى هذا اللوشاح ..

لا مجال للخطأ ، عين الشخصين اللذين مرا من أمام طونيو كروجير عبر لوحة من بحر أزرق صامت هما بذاتهما يمثلان له الآن من جديد ، أحس بفرح ورهبة معا ، كان هانز هانسن أكثر الاثنين قربا منه ، هو واقف بجوار الباب معتمدا بقوة على ساقيه وان مال جذعه الى الامام قليلا ، وكان يأكل يحذر من قطعة كبيرة من (الجاتو) مكورا كفه تحت ذقنه ليلبث الفات

طونو كروج ١٨٨

أما انجه هولم انجلبورج — انجه الشقراء — فكانت تجلس بجوار الجدار ، ها هو ذا صاحب الوشاح رئيس الحفلة يتقدم اليها مزهوا بنفسه ، وانحنى برشاقة متمدة ، احدى يديه دارت واستقرت فوق ظهره واليد الأخرى رفعها بلطف ووضعها فوق صدره ، علامة على أنه يدعوها للرقص ، ولكنها هزت رأسها وأبدت اشارة تنم عن أنها في حاجة لاسترادا أنفاسها قبل ان تشاركه الرقص ، وانها تود ان تستريح قليلا فما كان من صاحبنا الا أنه اتخذ له جلسة بجوارها .

تأمل طونيو هذه الفتاة وهذا الفتى اللذين اذاقاه من قبل عذاب الحب ، هانز وانجه ، ما أشد تأثيره بهما ، لا يعود السبب الى تفرد بلامحهما الذاتية أو توحد ذوقيهما في الملبس بل الى شعوره بالفارق بينه وبينهما من حيث العرق والنمط هما من جنس واحد ، الشعر الأشقر والعين في زرقة النصل ، يتجئل لفضيهما كل ما تملكه الحياة من نقاء وصفاء ووثوق ، من تعال يجمع في آن واحد بين البساطة والكبرياء ، واخذ يراقبهما ، هانز في زى البحارة ، يبدو أكثر من قبل جراءة ومتانة ، عريض الكتفين ، مهضوم الخصر ، وانجه هولم انجلبورج تضحك وتهز رأسها بمرح تختس به ، تمد الى عنقها يدا كيد فتاة صغيرة ، لاهى مفرطة في الجمال ولا في الرقة على حين انحسر كمها الشفاف ، وفجأة هصر قلبه شجنا فحقيق ، واذا به على غير وعى منه يتراجع ليختفى في العتمة حتى لا يشهد احد عبث العذاب بلامحه ، واخذ يحدث نفسه : هل تراني كنت نسيكها ، كلا ، محال ، هيهات ان اكون قد نسبت ، لا أنت يا هانز ولا أنت يا انجه هولم الشقراء

طونيو كروج ١٨٩

كان من أجلكما اقبالى على العمل ، فاشتغلت وكنت اذا سمعت تصفيق الاعجاب من المستمعين نلت خلسة حولى لأرى هل أنتها بين المصفيين ، أتكون يا هنز هانسن قد قرأت الآن دون كارلوس كما وعظمتى عند باب حديقة دارك لم أعد اطلبك بأن تقرأها ، فما يعنك أنت من أمر ملك يبكى لأنه وحيد ، ينبغي ألا ترهق عينيك وتطمس بريقهما من فرط العكوف على قراءة أشعار تبعث على الكآبة ، ليننى كنت مثلك ، فأبدا من جديد نشأة مثل نشأتك ، لى مرحك وبساطتك ومعيشتك الطبيعية المنتظمة فيحبنى السعداء والطلقاء من الهموم ، لكنت اذن قد تزوجتك يا انجه انجبور الشقراء وكان لى منك وليد يشبهك يا هانز هانسن ، اذن لكنت عبيت من الحياة والبهجة والحب ، ناجيا من لعنة الكشف وعذاب الابداع ، تحيطنى ضروب من السعادة واعيش كما يعيش أسوياء الناس ، ليتنى أبدا مرة أخرى من البداية ، ولكن لا جدوى من هذا كله ، اذ ستكون حياتى الجديدة كالسابقة التى عشتها ، سيحدث لى من هذه كل ما حدث لى فى تلك ، فمقدر على صنف من الناس أن يضلوا عن الجادة القويمة التى يشقها ركب القافلة .

وانقطع العزف ، هى استراحة دارت خلالها المرطبات والمشهيات ، صاحب الوشاح تولى بنفسه حمل صينية ملأى بسلطة الرنجة المدخنة ، وأخذ يدور بها على السيدات ، بل ركع امام انجه هولم انجبورج وهو يقرب الصينية اليهما مما جعل وجهها يتورد من فرط السرور ، وبدأ من فى الصالون يلحظون هذا الفتى الذى يرقبهم وهو واقف بجوار الباب ، التفتت اليه وجوه مليحة توهجت من الرقص واتجهت اليه نظرات مندهشة

طونيو كروجر ١٩٠

فاحصة واستقرت عليه ولكنه بقى مع ذلك في مكانه ،
وطافت به في عين الوقت نظرة من أنجه هولم وهانز
هانسن ، يكاد خلوها من المبالاة يشبه الازدراء . وخالطه
شعور بأنه يتلقى من جهة ما في الصالون نظرة مهمومة
بالبحث عنه والعثور عليه فاما وجدته استقرت عليه ،
لفت رأسه وفجأة التقت عيناه بعيني من أحس بتصويب
نظرتها اليه ، هي قناة شابة ، واقفة غير بعيد منه ،
وجهها شاحب رقيق مستطيل ، لم ترقص كثيرا اذ لم
يتلف الشبان على مراقبتها ، كان قد رآها تجلس
بجوار الجدار ، وحيدة تزم شفتيها ، هي الآن أيضا
وحدها في وقتها ، لها ثوب فاتح اللون مهتف كغيرها
من الفتيات ، يكشف عن كتفين لهما عظام بارزة وعن
رقبة نحيفة كأنها سقطت في هوة بين كتفيها المنكوسين ،
حتى لتبدو هذه الفتاة الصموت كأنها أصابها شيء من
قسوة الخلقة ، كفأها في قفاز نصفى تبرز منه أناملها
وتتلامس في رفق وهي تضعها فوق صدرها المسحوق ،
كانت تميل وجهها الى جنب وترمق طونيو كروجر بنظرة
تجلله من رأسه الى قدميه ، تنبعث من عيني سوداوين
غائمتين ، أشاح طونيو وجهه عنهما ، فهناك ، على
قرب منه ، يجلس هانز بجوار أنجه هولم ، يحسبه
الناظر البه انه اخوها ، تحيط بهما تلة من الشبان
لهم خدود موردة ، يأكلون ويشربون بين ثرثرة ولهو
وتبادل معانيات بأصوات رائقة ثم يضحكون بملء
أفواههم ، أغفر قادر هو على الاقتراب منهم فمزاح
هذا أو ذاك عند الخاطر فيكون جزاؤه — على الأقل —
ابتسامة ، كم يسعده هذا ، يود من كل قلبه ان ينقدم
اليهم ، اذن لعاد الى حجرته وهو أكثر سعادة ، شاعرا
انه أقام جسرا صغيرا بينه وبينهم ، أخذ يردد في ذهنه

طونيو كروجر ١٩١

— على سبيل التجربة — كيف يكون كلامه معهم حين يمازحهم ولكن هيهات أن تجسر نفسه على النطق به ، أذن سيكون الحال كما كان دائما ، لن يفهمه أحد منهم ، وإذا تكلم فسينصتون اليه بعجب واندھاش لأن لغته غير لغتهم .

آن أوان العودة للرقص ، وبدأ لصاحب الوشاح نشاط كبير ، أخذ يجوب الحجرة في عجلة ، يدعو الرجال الى مراقبة النساء وتولى بمعاونة الخدم ازالة المقاعد ورفع الاكواب لتهيئة المجال للرقص ، وأخذ يصدر أوامره للعازمين ويدفع في ظهور بعض الحائرين لعدم تجانسهم مع حلقتهم ليخرجهم من ربكتهم ، بذل هذا النشاط كله من أجل الاستعداد للرقصة القادمة وهي رقصة رباعية ، فكان لابد له أن يقسم الجمع الى حلقات مؤلفة أربعا أربعا . . ولما استبان لطنويو كروجر أن الرقصة رباعية عادت الى ذهنه ذكريات قديمة فاحمر لها وجهه خجلا .

وعزفت الموسيقى وانقسمت الحلقات الرباعية زوجين زوجين يتواجهان ويتبادلان التحية بالانحناء . . وتوالت أوامر صاحب الوشاح للراقصين . . رياه ، أن أوامره هذه اارة باللغة الفرنسية ، 'ينطق الحروف الانفية بتألق شديد ، لا مثيل له ، هذا واتجه انجبورج رقص بالقرب من طونيو كروجر في الحلقة الرباعية الدائرة في رقصها بجوار الباب ، ها هي ذى أمامه نخطو وتسير ، وتلف وتدور ، الى اليمين واليسار ، الى الامام والخلف ، من شعرها ونوبها الشفاف يصل اليه على تقطع عطر زكى ، فاذا به يغمض عينيه وقد استيقظ فبه احساس كان يالغه في قديم الزمان ، احساس بسحر يستولى عليه برفق فيجده حلوا ومرا في آن واحد ، اما

طونيو كروجير ١٩٢

الآن فان مثل هذا الاحساس يطغى على قلبه ولكن لا يجد له هذه المرة الا لذة خالصة لا تقاوم ، ما حقيقة هذا الشعور ؟ هل هو الطموح ، هل هو الحنان ، هل هو الحسد والغيرة أم هل هو الاحتقار للنفس ، هل تذكرين رقصتنا يا انجى الشقراء وكيف سخرت منى حين زلت بى قدمى فهذا الجميع من تخطى وعجزى ، هل تسخرين الآن من الشهرة التى بلغتها ، لا ريب أنك ستسخرين منى أيضا ، ولك حق ألف مرة ، حتى ولو أبدعت عديدا من روائع الفن فلن تنقطع سخريتك بى ، وخطر بباله وهو يراقبها بيت من الشعر كان يأنس له فى وقت من الأوقات ثم نسيه منذ عهد طويل ، يقول هذا البيت :

أشتهى أن أنام فدعنى واذهبى اذت للرقص ، حلال لك ، كم هو خبير بهذا الاكتئاب الذى يستقطره اهل الشمال من هذا البيت من الشعر المتغلغل شجنه الى أعماق أعماقه .. نعم ، أن أنام ، أن يتحقق الطموح الى حياة بسيطة لا اعتماد لها الا على مشاعر لا تتحول قسرا وغصبا الى فعل وعمل ، الى تنفيذ ، الى رقص لا بد منه ، بل تكمن فى لذة وتكاسل بين جنبيه — فان كانت هناك رقصة لا بد له أن يهتم بالاستجابة الى الحاحها عليه واجبارها له على تأديتها بعناية كبيرة فما هى الا هذه الرقصة الخطيرة التى يتمثل فيها الصراع مع الفن دون نسيان كم هو مهين وسخيف أن ترقص والحب مستول على كيانك كله .

ونجاة انفلت عيار الرقص ودب فى الجمع حماس اهو ج ، كانت الحلقات الرباعية قد انفست والاف الراقصون والراقصات دائرة بالتماسك بالأيدي لتأدية رقصة تعتمد على الجرى ، يهرون أمام طونيو كروجير

طونيو كروج ١٩٣

على وقع لحن يدفعهم للجري بسرعة جنونية والى اطلاق ضحكات عالية ، واشتبكت نظراته براقص وراقصه وهما يمران امامه ، للفتاة وجه شاحب رقيق الملامح وكفتان ضعيفان لهما عظام بارزة ، وفجأة تعثر الاثنان قبالتها وسقطا على الأرض امام قدميه ، وكانت سقطه الفتاة من الشدة والعنف بحيث بدا ان اصابة خطيرة قد لحقتها، وكذلك زميلها ، لا بد ان اصابته بليغة أيضا ، لانه نسي زميلته كل النسيان وحاول أن ينهض وهو يدعك ركبتيه وتنطق ملامح وجهه بشدة ألمه ، أها الفتاة فكانما فقدت وعيها فهي لا تزال مرتمية على الأرض ، حينئذ تقدم اليها طونيو كروج وأمسك ذراعها برفق وأعانها على النهوض ، انها دائخة ، مذهولة ، تعسة ، ثم فجأة طغت مسحة وردية على وجهها الرقيق وتمتبت له وهي ترمقه بعينيها السوداوين الغائمتين : اشكرك ، اشكرك كثيرا ، قالتها باللغة الدانمركية فأجابها بلطف :

— يحسن بك الا تعاودى الرقص يا آنستى ، ثم اصوب نظرتي من جديد اليهما ، الى انجه انجبورج وهانز هانسن ثم غادر الحفلة وعاد الى جبرته ، من من نهش الحسرة لقلبه تملكه اعياء شديد ، انهكته هذه البهجة الصاخبة التي لم يشارك فيها ، هذا هو العهد به دائما ، يقف في ركنه منعزلا ووجهه يتوهج من أثر الحمى التي تسرى في دمه ، متحصرا على أنه مختلف عن هذا الجنس الاثغر السعيد المتفجر بالحياة ، الممتع بها ، ثم ينصرف عن ركنه بهدوء ، كان يتوقع بوثوق أن يسعى اليه انسان ويقبل عليه ، أن تلاحظ انجه انجبورج انحرافه فتتسلل من بين الراقصين لتلحقه وتضع يده على كتفه وتهمس له : عد وتمتع وكن سعيدا فاني احبك . ولكنها لم تأت اليه قط ، كلا ، مثل هذه الأشياء لا تحدث

طونيو كروجر ١٩٤

أبدا ، نعم ، حاله الليلة كحالها دائما فيما مضى ، وهو الآن بحاله سعيد ، كما كان سعيدا بحاله من قبل ، لأن قلبه بقيت له حياته ، ولكن ما هذا الذى حدث له وهو يعبر الجسر بين ماضيه وحاضره فجعله على الحال الذى هو عليه الآن ، اسكنانة لها برودة الثلج ووحدته واننباه كاشف وتكريس النفس للفن ولا ريب .

خلع ملابسه ورقد واطفاً النور ، يهمس لوسادته باسمين ينتميان الى الماضى وبكلمة شكر من قلب طاهر سمعهما بلغة اهل الشمال فى هذه الليلة ، تتمثل له فيها كل الذى اختص به طبعه من حب صادق اصيل وتطلع الى النعيم ، تتمثل له فيها معنى الحياة وبيت الأسرة ، معنى العواطف البسيطة الصادقة التى تستولى على القلب .

استعرض بخياله ماضيه منذ مغادرته لمسقط رأسه الى يومه هذا فتذكر المامة الوضع بمغامرات الحواس والأعصاب والفكر ورأى نفسه قد سحقها انتقاد الذهن وتأمل الذات ، نهشها وأشلها قدرة البصرة على النفاذ للبواطن ، ضعضها تراوح الثلج والجهر عليها فى لحظات الابداع الفنى ، هى عاجزة وضيفة ، يكرهها وعى لها بأن الحدود القصوى تتجاوزها فهى تتخبط بين تقشرف الورع وبذخ الشهوات ، استوعبها تائق ذوقها فافنقرت واستهلكها ضروب من الجذل عقيمة وحرارتها كاذبة مصطنعة ، فأصبحت هذه النفس ضالة ، منبوذة ، معذبة مهيضة الجناح عليلة .. حينئذ بكى من شدة الحسرة والندم .

هنا فى حجرته فى الفندق سكون وظلام ، يبلغ أذنه فى خفوت لحن رقصة الفالس كأنها تهدد تفاهة الحياة .

الفصل التاسع

وفي بلاد الشمال انشغل طونيو كروجر بكتابة خطاب الى صديقته ليزافينا ايفانوفا حسب وعده لها بان يوافيها بأخباره .

عزيزتى ليزافينا .. أمد بصرى من بعيد اليك وأنت سعيدة في مرفك الأمين كأنه الجنة على الأرض ، والذي سأعود اليه عما قريب ، البك برسالة لا تغنى ولا ريب عن الخطاب الذى كنت أود أن أكتبه لك ، فهى أذن لن ترضيك ، ففى عزمى أن أجعلها مجزلة بلا تفاصيل ، لا لأنه ليس لدى ما أحكيه لك ، بالعكس ، مرت بى حوادث أعدها من قبيل التجارب التى تعجز عودنا ، مثلا ، كادت الشرطة تقبض على ، وأين ، فى بلدى ، مسقط رأسى ، ولكن سأروى لك ذلك ثفاها حين نلتقى .

يحدث لى الآن ان تمر بى أيام يكون فيها الكلام باجمال أفضل عندى من الكلام بالتفصيل ، ولعلك ياليزافينا تذكرين الى اليوم وصفك لى ذات مرة بأنى بورجوازى خائب ، بورجوازى طائش سهمه ، ارتضيت أنت لى هذا الوصف ساعة أن اعترفت لك بأننى أحب الحياة .. هذا الشيء الذى أسميه بالحياة ، وسؤالى لنفسى الآن هل كنت ندرकिन حينئذ كم كنت يا عزيزتى قريبة أشد القرب من الحقيقة ، وأن هذا الحب منى للحياة التى أعيشها هو واتصاف بالبورجوازية نىء

طونيو كروجر ١٦٦

واحد لا انفصال فيه بين الاثنين ، وقد أتاحت لى رحلتى
 أن أفكر فى هذه المسألة طويلا .
 كان لأبى كما تعلمين طبع أهل الشمال ، هو رجل
 متين المبادئ متفكر ، مستقيم ، ميل الى الكآبة ، وأما
 أمى التى تجرى فى عروقها دماء أجنبية مجهولة فامراة
 جميلة ، ميالة الى اللذة الحسية ، سانحة ، متقدة .
 العواطف ، خلية البال دائما ، تجمع كل هذه الصفات
 فى آن واحد ، وهى فوق ذلك ذات طبع متقلب ، والجمع
 بين هذين النمطين المعارضين كان خليقا بأن يؤذن
 بسلالة تنشذ عن بقية السلالات اما رقىا أو انحطاطا ،
 وكانت ثمرة هذا الجمع بين التقيضين فتى بورجوازيا
 ضل سبيله وطاش سهمه فلم يجد له حى الا فى معبد
 الفن ، بوهيمى الطبع ، طموحه أن تكون له معيشة
 محترمة يقرها المجتمع مع أنه فنان تعذبه عقدة الشعور
 بالذنب ، فلاشك أن ضميرى الذى تتحكم فيه أعراف
 البورجوازية هو الذى يجعلنى أرى الحياة الفنية بكل
 ما فيها من جنون وعبقرية جديرة بكل ارتياح واستنكار ،
 وهذا ما يجعلنى أحس بضعف وود نحو الانسان البسيط
 الطيب المريح بتجرده من الشذوذ ، وبأنه من أوساط
 الناس ، انسان محترم وان كان لا موهبة له ، اننى
 أقف بين عالين ولا أنتمى لأى منهما وهذا هو سبب الألم
 الذى أعانيه ، أنتم معشر الفنانين تحكمون بانئى عضو
 أصيل فى المجتمع البورجوازى فى حين أن هذا المجتمع
 البورجوازى حكم بانئى خيل عليه حين أراد أن
 يسجننى ، وأن ، فى بلدتى ، مسقط رأسى ، هذا هو
 حكمكم وهذا هو حكمه ولست أدري بأى الحكيم أنا
 أشد شقاء ، البورجوازيون أغبياء ، نعم ، ولكن أنتم
 الذين تعبدون الجمال وتحسبوننى بليد الاحساس مجردا

طونيو كروجر ١٩٧

من الطموح ينبغي لكم أن تدركوا أن أنسانا يصدق
اتصافه بأنه فنان بفضل طبع تغفل في أعماقه فرضته
أرومته وأقداره — يكون له مع ذلك ميل الى الايمان
بأن لا شوق من حيث المتعة والقيمة يفوق شوقه الى
الحياة البسيطة التى يآلفها عامة الناس . اننى شديد
الاعجاب بهذا الصنف من الناس المتكبر البارد الأعصاب
الذى يحتقر البشر ثم هو مع ذلك لا يهاب المغامرة في
الطريق المؤدى الى قمة يعانق فيها الجمال الفذ الجهنمى،
فعندى أن الشرط الذى يتوقف عليه ارتقاء الأديب الى
قمة النسر هو ابتلاؤه — مثلى — بحب بورجوازي
للشعر ، للأشياء المعتادة البسيطة ، هذا الحب هو
مصدر الدفء والطيبة والفكاهة ، أعنقد أن هذا
هو عين الحب الذى قالوا عنه ان فاقده وان تكلم بكل
لغات البشر والملائكة لن يزيد صوته عن نفخ بوق
أو رنين صاجات ، وأقول لك أن كل انتاج لى الى اليوم
لا قيمة كبيرة له ، ولكنى سأحاول الاجادة ، هذا وعد
منى لك يالزافينا ، وصلنى هدير البحر وأنا أكتب لك
الآن فأغمضت عيني لى بجوس نظرتى خلال عالم لم
يولد بعد ، ولم يتشكل بعد ، عالم بطلب أن يجد
نظامه وشكله ، فاذا بى أرد البصر حسيرا عن أشباح
لشخص بشرية تقبل على وتناشدنى أن أقضى على
الطلمس الذى يمنعها من الارنداد الى عالم الأحياء فيها
أشباح مأسوية وأشباح هزلة ، وأشباح مأسوية هزلية
فى أن واحد ، وهذه هى أكثرها جذبا لى ، ولكن أخفى
وأعيق حب لى هو حبنى للجنس الأشقر الشعر الأزرق
العين الذى يجد السعادة كلها فى معيشة بسيطة حلوة
مألوفة ، ولا يكن لك ياليزافينا ازراء بحبنى هذا ،
فانه شهى ومثير ، وينطوى على أشواق تهصر القلب
وحسرة مغلفة بالاكثاب ولكن هذا الحب هو السعادة
التى لا حد لظهرها .

التوزيع في ج . م . ع : مؤسسه الاهرام
التوزيع في جميع الدول العربية :
الشركة الشرقه للنشر والتوزيع بيروت — لبنان

مطابع الاهرام التجارية
رسم الانداع بدار الكعب
١١٧٣/٤٦٦٤

12

Bibliotheca Alexandrina



0388077

الثلث في ج ٠ م ٠ ع
عشرة قروش